Kingdom of Saudi Arabia

Ministry of Education

King Khalid University

Faculty of Languages & Translation

Department of Translation

Graduation Project

"Finding Chika"

By: Mitch Albom

Translation and Commentary by:

Wafa Mlahwi Al-Qahtani

Pages: 11 to 80

Supervisor: Dr. Hasan Jaashan

Date: April 2021

Contents

Title	Page
DECLARATION	1
INTRODUCTION	2
THE TARGET TEXT	3
THE SOURCE TEXT	68
COMMENTARY	147
CONCLUSION	150
REFERENCES	151

Declaration

I, Wafa Mlahwi Alqahtani, hereby certify that this project, which is approximately *12,600* words in length, has been written by me, and that the translation herein is entirely my own, and that this project is the record of work carried out by me, and it has not been submitted in any previous application for a higher degree.

Date: April 11, 2021 Signature : Wafa Mlahwi Al-Qahtani

Abstract and Introduction

All through history, translation has played a significant role in bridging the linguistic, cultural, and religious gaps that have long been found between nations. It is a vast and varied world; it includes several techniques, diverse theories, and many types. It was seen in the past as a branch of applied linguistics. However, nowadays, it is recognized as an independent field that carries problems and challenges treated by theoreticians and scholars interested in translation. According to Newmark (1988, 5), “translation process is the rendering the meaning of a text into another language in the way that the author intended the text”. According to Katherina Reiss (1971), there are four text types informative, expressive, operative, and audio-medial text type, as cited in Munday, (2016, p. 115)

I have chosen an expressive book for the graduation project: a biography/autobiography entitled Finding Chika, written by Mitch Albom. It is a memoir about a young Haitian orphan diagnosed with a brain tumor and how she had changed the author and his wife's lives. I have chosen this book because it contains valuable themes and lessons such as making a difference, protection, time investment, resilience, and other thoughtful themes. It took me two months to finish the project. I translated 1000 words per day. The book's language is easy and straightforward, which helped me finish the project in a short period. During the translation process, I had encountered different stylistic, lexical, phonological, and grammatical issues. As suggested by Reiss (1971), I tried to adopt the writer's perspective; therefore, I adopted different techniques to deal with those challenges and to convey the text's aesthetic nature.

العثور على تشيكا

فتاة صغيرة،زلزال، وتكوين عائلة.

الفصل الأول

نحن

"لماذا لا تكتب يا سيد ميتش؟"

تشيكا مستلقية على السجادة في مكتبي، انقلبت على ظهرها، ولعبت بأصابعها.

تجيء تشيكا إلى هنا في الصباح الباكر وشعاع الشمس المتسلل من النافذة ما يزال رقيقاً، تجيء أحياناً ومعها إمَّا دمية أو مجموعة من الألوان السحرية، وأحياناً أُخرى بمفردها، مرتدية منامتها الزرقاء، قميصها مزين برسومات " my little pony"[1] وسراويلها بنجوم باستيلية، كانت تشيكا تحب اختيار ملابسها بعد أن تفرش أسنانها كل صباح، مطابقة ألوان القمصان والجوارب.

لكنها لم تعد تفعل ذلك بعد الآن.

ماتت تشيكا الربيع الماضي، عندما بدأت الأشجار في حديقتنا تبرعم، كما هي حالها الآن، فقد حل الربيع مجدداً. فقدنا بعد وفاتها القدرة على التنفس، والنوم، وشهيتنا، واعتدنا أنا وزوجتي التحديق المُطَّول إلى أن يردنا شخص ما بحديثه إلى وعينا.

إلى أن عاودت تشيكا الظهورذات صباح.

قالت مجدداً: "لماذا لا تكتب؟"

ذراعيّ متكتفة، وأحدق في الشاشة الخالية.

عمَّ أكتب؟

"عنِّي."

سوف أكتب.

---

[1] ماي ليتل بوني مسلسل رسوم متحركة.

"متى؟"

قريباً.

أصدرتْ صوت "قررر" كصوت نمر كارتوني.

لاتغضبي.

"أف."

لا تغضبي يا تشيكا.

"أف."

لا تذهبي، موافقة؟

نقرت الطاولة بأصابعها الصغيرة، كأن عليها التفكير بالأمر.

كانت زيارات تشيكا قصيرةً جداً، زارتنا أول مرة بعد وفاتها بثمانية أشهر، صبيحة جنازة أبي. يومها خرجتُ لألقي نظرة إلى السماء، فإذا بها واقفة بجانبي ممسكة بمدخل السور، فناديتُها ولستُ مصدقاً "تشيكا؟" فالتفتت إليّ فأدركتُ أن باستطاعتها سماعي، تحدثتُ بعجالة موقنٌ أنِّي في حلم وأنها ستختفي في أية لحظة.

كان ذاك منذ زمن، أما الآن، فإنِّي عندما تجيء أقول لها بهدوء "صباح الخير، أيتها الفتاة الجميلة." فترد قائلةً، "صباح الخير، سيد ميتش." ثم تجلس إما على الأرض أو على كرسيها الصغير الذي ما بارح مكتبي، أفترض أنَّ بإمكاننا أن نعتاد كل شيءٍ في الحياة حتى هذا.

قالت مجدداً: "لماذا لستَ تكتب؟"

يقول لي الناس أنَّ علي الانتظار.

"من؟"

الأصدقاء والزملاء.

"لماذا؟"

لا أعلم.

كذبتْ. أنا أعلم جيداً، يقولون لي "أنتَ بحاجة لمزيد من الوقت، الصدمة قوية، مازلتَ مضطرباً" ولعلهم محقون، لعلنا نتقبل حقيقة ماحدث لأحبتنا ما إن نودعهم الورق، ولعلي لا أريد تقبل هذه الحقيقة، موت تشيكا، وأنَّ كل ما بقي لي كلمات في ورق.

"انظر إلي سيد ميتش!"

تدحرجت على ظهرها يمنة ويسرة.

" الثغير ذداً تسلق صنبور الماء ..."

"العنكبوت الصغيرجداً" صححتها، الكلمات صغير جداً.

ردت "بكلا!".

كانا خديها ممتلئين وشعرها ضفر إلى ضفيرتين محكمتين وشفتاها مضمومتين كأنها ستصفر، كانت بنفس حجمها عندما جئنا بها من هاييتي إلى هنا، طفلة الخمس سنين، وأخبرناها بأنها سوف تبقى معنا في حين يساعدها الأطباء لتصبح أحسن حالاً.

"متى ...

"سوف ...

"تبدأ ...

"الكتابة؟

سألتها: مالذي يزعجكِ إلى هذا الحد؟

قالت وهي تشير بأصبعها: "ذاك".

تبعتُ إصبعها بنظري، كانت تشير إلى مكتبي الذي يوجد فوقه تِذكارات تخصها حين كانت على قيد الحياة: صور، كوب بلاستيكي بمصاصة، تنينها الصغير الأحمر من فيلم مولان وتقويم.

"ذاك."

التقويم؟ قرأتُ التاريخ: السادس من شهر أبريل عام ٢٠١٨.

بحلول يوم غد السابع من شهر أبريل سيكتمل عام.

مر عام منذ أن غادرتَنا.

ألهذا السبب أنتِ منزعجة إلى هذا الحد؟

تمتمت وهي تنظر إلى قدميها "لا تنسوني."

فقلت لها: أوه، يا حبيبتي، هذا مستحيل وكيف لنا أن ننسى من أحببناها؟

فأمالت رأسها، وكأني أجهل شيئاً جلياً.

"بالطبع، ستنسونني."

****

ذات ليلة، من ليالي الشهورالأولى المعدودة التي قضتها معنا، عندما قرأتُ لها "البيت في زاوية بووه"، كم أحببتْ تشيكا أن نقرأ لها، كانت تجلس في حضني وتريح غلاف الكتاب على رجليها وتجتذب الصفحة لتقلبها قبل أن أنهي قراءتها.

في نهاية تلك القصة، يقول كريستوفر روبن الراحل للدب بووه: "عدني أنك لن تنساني أبداً حتى إن صار عمري مائة" لكن الدب لم يعده، ليس في بادئ الأمر، بل سأله " كم سيصبح عمري حينها؟" كأنه أراد أن يتبين مالذي سيقدم عليه.

يذكرني الأمر بميتمنا في هاييتي في اللحظة التي يصل فيها زائر إلى الميتم يسأله صغارنا "كم ستبقى؟" كأنهم يريدون أن يتبينوا إن كان هذا الزائر سيطيل المكوث أم لا وهل يغدقون عليه مؤَدتهم أم لا. جميعهم قد تُخلي عنهم فيما مضى. كانوا يحدقون إلى البوابة والدموع ملء أعينهم في أمل أن يأتي من يصطحبهم إلى المنزل. لقد مرت تشيكا بهذا الموقف، لقد غادر الشخص الذي جاء بها في اليوم ذاته، فمن الممكن أن يكون هذا ماقصدته، أنك تستطيع نسيان أحبتك، وربما قد لا تعود لإصحطابهم.

ألقيتُ نظرة سريعة إلى التقويم، أيعقل هذا! لقد مر عام منذ أن غادرتنا، لكأنه الأمس لكأنه أبداً.

قلتُ لها: حسناً، يا تشيكا، سأبدأ الكتابة.

"مرحى!" صاحت هازة قبضتيها.

شريطة أن..

فأمسكتْ عمَّا كانت تفعله.

عليكِ أن تبقي هنا بينما أكتب، عليكِ البقاء معي اتفقنا؟

أعلم أنه ليس باستطاعتها تلبية طلبي، ولكني فاوضتها، فهذا كل مانريده أنا وزوجتي منذ أن غادرتنا تشيكا، أن نكون سوياً طيلة الوقت.

قالت: "إحك لي حكايتي."

وستبقين إن فعلت؟

"سأحاول"

قلتُ: حسناً، سأحكي حكايتي وحكايتك.

فقالت: "حكايتنا."

فقلتُ: حكايتنا.

أنتِ

جئتُ يا تشيكا لدولتكِ في يومٍ من الأيام، بعد ولادتكٍ بأيامٍ قليلة، لأن شيئاً كارثياً جداً يسمى زلزال قد حدث.
يحدث الزلزال عندما__

نحن

"توقف يا سيد ميتش."

ما الأمر؟

"لا تتحدث بهذه الطريقة."

ماذا تعنين؟

"كأني طفلة."

ولكن عمركِ سبع سنوات فقط.

"كلا."

لم يعد عمركِ سبع سنوات؟

هزت رأسها.

كم عمركِ إذاً؟

هزت كتفيها.

مالعمل إذاً؟

"تحدث كالبالغين، كما تتحدث إلى السيدة جانين."

متأكدة؟

أخذتْ بمعصميّ وأعادتهما إلى المفاتيح، شعرتُ بدفء يديها الصغيريتن وتنعمتُ به. لقد تعلمتُ أني لا يمكنني لمسُ تشيكا، ولكنها يمكنها لمسي، ولستُ أعلم مالسبب؟ لستُ أفهم القواعد. ولكني سعيدٌ بزياراتها ومُتَعطِّشٌ لكل تواصل معها.

بدأتُ مجدداً.

أنتِ

لم أكن هناك يوم ولدتِ يا تشيكا، وصلتُ إلى هاييتي بعد ولادتكِ ببضعة أسابيع، للمساعدة بعد زلزال رهيب، وبما أنكِ قلتِ لي أن علي أن أخاطبك كما لو كنتِ كبيرة فإنَّ بمقدوري القول أنه كان من القوة ليمحو ثلاثة بالمائة من شعبكم في ثلاثين ثانية. تداعت الأبنية، وتهاوت المكاتب، المباني التي آوت الأسر كانت قائمة في لحظة وفي اللحظة التي تليها كانت الأدخنة تتصاعد منها، مات العديد من الناس ودُفنوا تحت الأنقاض، لم يُعثر على معظمهم إلا بعد أسابيع، وقد غطا الرماد جلودهم. لم يُحصُوا إلى يومنا هذا عدد المفقودين على وجه التحديد، ولكنهم كانوا مئات الألوف، لقد فاق عددهم في أقل من دقيقة عدد قتلى جميع أيام الثورة الأمريكية وحرب الخليج معاً.

كانت مأساة في أرضٍ قد اعتادت المآسي. تُعد موطنكِ هاييتي ثاني أفقر أمة في العالم، بتاريخها المليء بالصعاب و العديد من الوفيات المفاجئة.

لكنها يا تشيكا موطن السعادة الجمَّة أيضاً، موطن الجمال والضحك والإيمان الراسخ، والأطفال، أولئك الذين يتكاتفون ويرقصون بعفوية تحت عاصفة ماطرة، ثم يُلقُون أجسادهم على الأرض في هستيريا، كأنهم لا يدرون ماذا يصنعون بكل هذه البهجة. لقد كنتِ يوماً سعيدة مثلهم وأفقر منهم. لقد

أخبروني قصة مولدكِ وكانت كما يلي؛ جئتِ الى هذا العالم في التاسع من يناير عام ٢٠١٠ في بيتٍ . يومها لم يكن هناك طبيب، لقد أخرجكِ من رحم [2]إسمنتي مكون من غرفتين جنب شجرة فاكهة خبز اسمه ألبرت. كانت ولادتكِ سليمة من جميع النواحي، لقد بكيتِ ونمتِ كما يفترض. [3]أمك قابلٌ

وفي يومكِ الثالث في هذه الحياة، الموافق الثاني عشر من يناير، وفي ظهيرةٍ حارة، كنتِ نائمة على صدر أمك عندما اهتز العالم كأن الأرض استحالت سماءً ترعد، تزعزع بيتكِ الإسمنتي، وسقط سقفه فانشق بناؤه كجوزة، وانكشفتما للسماء.

---

[2] فاكهة الخبز أو (breadfoot) هي نوع من الأشجار المزهرة من عائلة التوتيات، موطنها الأصلي شبه جزيرة ملايو وجزر غرب المحيط الهادي، لكنها زُرعت في العديد من المناطق الأخرى.

[3] القبالة مهنة تابعة للرعاية الصحية تُقدم فيها الرعاية للنساء المقبلات على الولادة خلال فترة الحمل، المخاض، وحتى بعد الولادة.

لقد رءاكما الله يا تشيكا وحفظكما حين مات آخرون كُثر يومها. دُمر منزلكما لكنكما لم تصابتا بأي أذى، عاريتان تحت السماء لكن سليمتان، كان الناس يركضون ويسقطون ويدعون ويبكون من حولكما، سقطتِ الأشجار واختبأتِ الحيوانات.

نمتِ تلك الليلة في حقول قصب السكر على سريرٍ من الأوراق، تحت النجوم وكان هذا محل نومكِ لأيام عديدة تلتها. لقد ولدتِ على تراب وطنكِ الهائج الثائر الجميل، وربما لهذا السبب أنتِ هائجة وثائرة وجميلة جداً، أنتِ هاييتية وإن عشتِ ومتِ في أميركا، لم يكن هذا العالم عالمك، عالمك حيث أنتِ الآن وإن كان طيفك جالساً معي.

نحن

قالت تشيكا وهي مستلقية على ظهرها:"هذا أفضل."

قلتُ: جيد.

"سيد ميتش؟"

نعم.

"إني أعلم بأمر tranbleman tè[4]"

الزلزال.

"لقد كان سيئًا."

صحيح.

"سيد ميتش؟"

نعم؟

"عليَّ أن أخبرك شيئًا."

ما هو؟

"لا استطيع البقاء."

نظرتْ إلي بعينيها الواسعتين وأقسم أني باستطاعتي رؤيتهما وإن ابتعدتُ عنهما ميلاً. يقولون أنَّ تشكل عيني الطفل يكتمل في عامه الثالث ولهذا تبدوان كبيرتين في الوجه، ولربما كانت هذه السنين مليئةً بالكثير من العجب الذي لا يستطيع الطفل استيعابه.

سألتْ: هل أستطيع أن أكمل؟ الآن؟

[4] الزلزال

مطت شفتيها وهزت رأسها الى الأمام والخلف كأنما ذاقت ليمونة حامضة. كانت تفعل ذاك دائماً عندما كانت على قيد الحياة، كأنها تحتاج إلى تقليب الأفكار في عقلها، ثم قررتْ "أكمل".

أنتِ

في ساعة متأخرة ذات مساء جلسنا أنا والسيدة جانين بجانب سريرك وقلتِ لنا حينها بهدوء: ‘‘كيف عثرتم علي؟"

لقد كان سؤالاً موجعاً لم أستطع بادئ الأمر إلاَّ تكراره. "كيف عثرنا عليكِ؟" فقلتِ نعم، فقلنا "تعنين كيف جئتِ إلينا؟" فقلتِ نعم مجدداً ولكنّي أظنكِ عنيتها كما قلتِها أول مرة لأن حياتك قبل مجيئكِ للميتم كانت ضبابية في ذاكرتك كالتواجد في غابة اكتنفها الضباب، فسؤالكِ "كيف عثرتم علي؟" كان منطقياً أكثر لأني أفترض أنكِ تشعرين أنكِ قد عُثِر عليك.

لكن اعلمي يا تشيكا أنكِ لم تكوني ضائعة قط، كان هناك أناسٌ أحبوكِ قبلنا، أمكِ ريسيليا كما أخبروني، كانت امرأة طويلة وقوية ذات وجه عريض وملامح صارمة، كملامحكِ عندما لا تُنفَّذُ رغباتكِ. كانت أمكِ ابنة مزارع بطاطا حلوة في ميناء اوكس كايس، جاءت إلى بورت او برنس وعمرها سبع عشرة سنة. أحبت القراءة وأكل السمك وباعت أشياء بسيطة على الطريق لتكسب المال، كان لها صديقة اسمها هيرزوليا، كانتا تتمشيان معاً وتضحكان على الرجال وقد تزوجت أمك في آخر المطاف برجلٍ كبير السن ذو عينان حزينتان كان اسمه الأول فيندر واسمه الأخير جيون، وهو اسمك الأخير أيضاً جيون ويعني بالفرنسية "صغير"، كان الإسم مناسباً لك.

أنجبت أمكِ من فيندر بنتين قبلك، أختيك الكبيرتين، وعندما حملت أمكِ بكِ، قالت لهيرزوليا أنكِ ستكونين طفلتها الأخيرة، ومعاً اختارتا لك اسماً أنيقاً ميدجيردا رغم أن الناس في وقت قصير بدأوا بمناداتكِ تشيكا. قيل أن سبب مناداتكِ بتشيكا أنكِ كنتِ طفلة مكتنزة وقيل أيضاً أن تشيكا مصطلح للتحبب. كل ذلك لايهم حقاً. فلكل منا أسماء أطلقت علينا وأسماء اقترنت بنا وكان تشيكا اسمك الذي عُرفتِ به. ولو أن أمكِ كانت محقة عندما قالت أنكِ ستكونين طفلتها الأخيرة لبقيتْ على قيد الحياة ولم التق بكِ أبداً.

لكنها انجبتْ من فيندر بعد سنتين طفلاً آخر، صبياً. أنجبتهُ في شهر أغسطس أحرّ شهور السنة، في الساعات التي سبقت بزوغ الشمس. كان ألبرت القابل موجوداً مجدداً لكن الأمور لم تسر على ما يرام.

عاش أخوكِ.

وماتت أمكِ.

أعلم يا تشيكا ذاك أمر غير مفهوم أن تولد نفسٌ وتموت أخرى على الفراش نفسه. ولكن هذا ما حدث، وكان ذاك آخر ما رأيتِه من عائلتكِ التي أنجبتكِ لوقت طويل. حملتكِ هيرزوليا بعد الجنازة. قالت أن وأصرَّت "إن متْ عليكِ أن تأخذي تشيكا" فأَخَذتكِ، ولم يعترض أبوك. [5]أمكِ اختارتها لتكون عَرَّابتكِ فهو لم يبقِ أيَّاً من أبناءه. لعل موت أمكِ صعقه ولم يدر حقاً ما العمل.

وأياً كان ما أصابه فقد ذهبتْ ميوريل أكبر أختيك مع عمة لكم، وذهبت ميرلاندا أختكِ الكبرى الأخرى مع عائلةٍ صديقةٍ لكم، أما المولود الجديد أخوكِ موسى -سَمِيُّه في الإنجيل ربته أميرةٌ مصرية- ذهب مع خالك إلى شقة ضيقة يتشاركها مع زوجته. وذهبتِ مع هرزوليا، امرأة قصيرة، قوية، صوتها مرتفع لكنه واهن. لقد أحبتْ أمكِ حباً جماً وبكت يوم جنازتها كله. ظهيرة ذاك اليوم الهاييتية. [6]أخَذَتكِ وأخذتْ طقمي ثياب وانطلقتما على متن حافلة التاب تاب

ثيابكِ تلك هي كل ما احتفظتِ به من بيتكِ الأول. أعلمُ يا تشيكا أنها ليست بالكثير. كل ما يمكنني قوله أن الله كان رحيماً بكِ حين محى تلك الأيام من ذاكرتك. دُفنت أمك مع أناس آخرين في قبر كبير لم يدل عليها في أي مكان. لا شيء يحمل اسمها لتزوريه وتدعي عنده. لكنكِ كما [7]يكن هناك شاهدٌ قبر تعلمتِ تستطيعين الدعاء لها أينما كنتِ.

لم تبقِ في بيتكِ الثاني إلا أقل من سنة. كان عبارة عن شقة بغرفة واحدة في بناء إسمنتي تشاركتهِ مع عائلة هيرزوليا. لم يكن هناك حمام بالداخل. وعندما ينقطع التيار الكهربائي مساءً يعم ظلامٌ دامس. وكنتِ كل صباح تحملين مُلاءات السرير المتسخة وتصعدين الدرج إلى السطح، مهمة خطيرة على طفلة لم تكمل عامها الثالث. رأتكِ امرأة تقومين بها فأقلقتها سلامتك. واقترحت على هرزوليا أن تُودِعَكِ ميتماً لأنك ستكونين أفضل حالاً هناك. كانت تعرف ميتماً قريباً في حي ديلماس ٣٣.

ذاك ميتم أديره منذ عام ٢٠١٠، عام الزلزال، المكان الذي تسمينه misyon an "البعثة"، وبالتحديد بعثة تحلي بالإيمان هاييتي، قطعة أرض مستطيلة خلف بوابة رمادية مرتفعة في شارع رو ان لارامي، شارعٌ منخفضٌ رهيب تتجمع فيه المياة وقت المطر كبحيرة صغيرة.

---

[5] العَرَّاب عند المسيحيين الكفيل الذي يحضر عملية تعميد الطفل ويتولى بذلك مسؤولية رمزية اتجاهه.

[6] حافلة التاب تاب حافلة مطلية بألوان زاهية تمشي في طرق معينة ولا تنطلق حتى تمتلئ بالركاب ويمكن لركابها النزول في أي مكان خلال الرحلة.

[7] شاهد القبر حجر مستطيل يوضع على القبر

وهكذا يا تشيكا قدر الله لحياتينا أن تجتمع بل بالأصح كان ذاك استمرار مشيئة الله، فالله قد قدر كل شيء قبل بداية الخلق.

هل تذكرين لقاءنا؟ أحياناً تقولين أنكِ تذكرين، ولكني في أحيان أُخرى أشك أنكِ تذكرين، لأنكِ كنتِ طفلة صغيرة كان عمركِ حينها ثلاث سنين. كان شعركِ مُزَيَّناً بمشابك شعر وشرائط، وكنتِ مرتدية فستاناً ورديا انتَقَتهُ لكِ هيرزوليا، يعتقد الهاييتيون الذين يجيئون إلينا أنهم إذا ألبسوا الصغار لباساً حسناً فإنا نميل أكثر إلى قبولهم. ولكن هذا غير صحيح إطلاقاً. أحياناً ليس من اللائق إلباس الأطفال ملابس حسنة وما جلبهم إلينا سوى الفقر. لكن لعله الكبرياء، شيء عليك احترامه في بلدٍ أجنبي، لأنك لن تفهميه دائماً، لقد مرت علي لحظات كثيرة في هاييتي لم أفهمه.

وبصراحةٍ يا تشيكا، في السنين الأولى، لم أفهم أشياء كثيرة عن هاييتي أو الميتم أو كيف يفترض بي إدارته. فالكهرباء تنقطع كل يوم. والماء ينضب. وشُحنات الأرز والبرغل تصل إلينا حيناً وتنقطع أحياناً. ولم يكن لدينا أدوية كافية. عُمَّال الإصلاح يقولون أنهم في طريقهم إلينا ولا يجيئون أبداً. كنتُ أقوم بالأعمال الإدارية من الإيصالات إلى المستندات الحكومية يدوياً. كانت مهنتي الكتابة. وبما أني عشتُ في ديترويت وأشرفتُ على العمليات الخيرية في أميركا، فإني كنتُ أشعرُ معظم الوقت في هاييتي كمن يقرأ تعليمات تركيب منتج بلغة أخرى.

فوق هذا كله فإني والسيدة جانين لم يكن لدينا أطفال. ورغم حماسي إلا أني لم أكن خبيراً بالأمور الأبوية. تُربكني السحابات والأزارير الصغيرة. وعندما يتقيء طفل أبالغ بردة فعلي وأتلعثم عند شرح مفهوم الفقر للأولاد.

ولكني كنتُ أدرك هذا: عندما يُجاء بالصغار لبوابة الميتم، كان عليَّ تَفَحُّص مظاهرهم، لأنهم كثر، ومحتاجون جداً، وحتى هذه اللحظة فإن مقابل كل طفل نقبله هناك عشرة لا استطاعة لنا بهم. لا يملك معظم الهاييتين سوى دولارين كفاف يومهم. ومعظمهم يعيش بلا كهرباء ولا مياه نظيفة ويستخدمون نار الفحم للطبخ. ويموت ثمانون مولوداً من ألف قبل عامهم الخامس.

حماية وإطعام الأطفال هي من أولى الأولويات بالنسبة للهاييتيين يا تشيكا. ومكان كميتمنا باستطاعته توفير ذاك الأمل. وربما كان هذا سبب وفدهم إليه. وعندما يفدون إلينا كان عليَّ أن أطرح أسئلة مثل كيف عيشة الصغار؟ كيف مأكلهم؟ مالظروف العصيبة التي جاءت بهم الينا؟

ولتعلمي أن البالغين أحياناً يشرعون بالبكاء عند طرحي لهذه الأسئلة. جاءتنا أمٌ في بداية عشريناتها وقد أثقلها الحمل ظننتُ أنها ستلد في المكتب. كان يقف بجانبها ابنها أظنه يبلغ من العمر أربعة سنين، وكانت تحمل بين يديها رضيعاً. توسلتْ إلينا أن نأخذهما كلاهما، لأنها امرأة معدمة وليس باستطاعتها توفير مسكن لهما أو إطعامهما. وعندما سألتها كيف ستُعيلُ الجنين الذي في بطنها شرعت بالبكاء وقالت " Ou mèt pran li tou" خذوه أيضاً.

لم تكن قاسية. إني واثق أنها أحبتهم حباً جماً، لكنها أرادت لهم أن يعيشوا بأمان حتى وإن عنى ذلك أنها لن تستطيع رؤيتهم كل يوم. إنَّ العناية بطفل تتطلب قوة خاصة، يا تشيكا ويتطلب الإقرار بعدم قدرتنا على ذلك نوعاً آخر من القوة مختلفاً تماماً.

لعل هيرزوليا أحست بذلك عندما جاءت بكِ إلينا. قالت لنا أن لديها ثلاثة أطفال ولا مال لديها. بينما كنا نتحدث كنتِ تشاهدين في صمت، وهيرزوليا تمدد فستانك المجعد.

و إليكِ ما أتذكره على وجه التحديد من لقاءنا ذاك. بعد برهة من الزمن كتفتِ يديك كأنما نفد صبرك فنظرتُ اليك فنظرتِ الي فمددتُ لساني فمددتِ لسانكِ فضحكتُ فضحكتِ.

معظم الأطفال الذين يجيئون إلينا يكونون خجولين ومتوترين ولا يبادلونني النظرات عندما أنظر إليهم. ولكنكِ نظرتِ إلى عينيَّ منذ البداية. وإن كنتُ لا أعرف إلا القليل عنكِ يا تشيكا إلا أني أجزم أنكِ شجاعة وأن الشجاعة ستكون معيناً لك في هذه الحياة.

لكني لم أعرف إلى أي حد قد تحتاجينها.

نحن

"انتظر ياسيد ميتش."

نعم؟

"عندي سؤال."

حسناً.

وضعتْ يديها على مكتبي وارتكزتْ عليهما " هل بكيت عندما جئتُ للبعثة ؟"

لا.

"هل كنتُ غاضبة؟"

لا أظن ذلك، مالذي قد يغضبك؟

"لأني كنتُ طفلة صغيرة وقد فارقت أهلي." قالتها وكأنها شيء بديهي.

أيغضبكِ هذا الآن؟

"لا."

نظرتْ بعيداً وقالت" "لم أعد أغضب."

أحزنني هذا حقاً، لأن مزاج تشيكا كان من أكثر صفاتها المحببة لنا. كانت تُكتِّف يديها وتشيح بناظرها عنا وتُطرِق برأسها فإن جئتُها من اليمين التَّفت يساراً وإن جئتها من اليسار التَّفت يميناً وإن جلستُ أمامها وأمسكتُها بكتفيها كان علي كبح ضحكة. ياله من عبوس. رغم أنها طفلة إلا أنها أتقنت منظر كهل في طابور مصرف طويل.

سألتها هل يسعدك أنك لم تعودي تغضبي؟

"أفتقده أحياناً"

متى؟

"مثلاً، هل تذكرُحينما كنت أصرخ فتخبرني أنت والسيدة جانين (تشيكا نحن لا نصرخ على بعضنا.)؟"

أَلِهذا تفتقدين الغضب؟

"أنا لا افتقد الغضضضضب" قالتها بتَشَدُّق "افتقد إخبراكما إيايَّ ألاَّ أغضب."

صمتُّ برهة لأستوعب كلامها، مثلما كنت أفعل عندما كانت حية وكانت تباغتني بحكمتها العفوية.

"سيد ميتش؟"

نعم؟

"هل كنتُ طفلتك المفضلة في هاييتي؟"

ابتسمتُ لسؤالكِ. في الحقيقة عندما استقبلنا تشيكا في الميتم، سرعان ما أصبحت شعلة نار تأمر وتوجه الأطفال الآخرين حتى الكبار منهم كرقيب تدريب. كانت هي التي تقرر من يبدأ في سباقات التتابع، وأي دمية يلعبون بها، وأين يقفون في طابور الحمام، كان صوتها جهوراً وكانت لديها نزعة من العِناد. وأنا متيقن أن بعض الأطفال الخجولين كانو مذعورين منها. ليتني أعرف من أين جاءت بجرأتها، مالذي حدث لها في صغرها ونمَّا لديها هذه الجسارة قبل مجيئها للميتم. كل ما أعرفه أنّي عندما انظر لصورها من تلك الأيام أراها واضعة يدها على خصرها مُلوِّحة بأصبعها كأنها تقول لا لا لا.

قلتُ لها الآن: كلكم مفضلون عندي.

" هذا ما تقوله دائماً."

حسناً، هذه هي الحقيقة.

انقلبتْ على بطنها وفجأة أصبح لديها دمية ظهرت من العدم. أميرة من الأميرات بفستان أزرق، شعرها أسود، وعلى رأسها تاج. رفعت يدي الدمية فكأنها بلغت السماء.

"سيد ميتش؟"

همم؟

"لماذ ليس عندك أطفال؟"

صمتُّ لبرهة ثم قلت: ماذا تعنين؟

"قلتَ لي أن الناس يجيئونكم بأطفالهم لكنك والسيدة جانين ليس عندكم أطفال."

إني اكتب قصتكِ يا تشيكا ماعلاقة هذا بقصتك؟

رفعتْ جفنيها فكأنهما محارتين انفتحتا. إنها تعلم أن الأمرين متعلقين ببعضهما كثيراً.

أنا

حسناً. حسناً. لأجيبكِ بصدق، كانت الأنانية السبب. لقد حذرتكِ دائماً يا تشيكا ألَّا تكوني أنانية. ولكن هذا لا يعني أني لم أكن أنانياً. كنتُ أنانياً أغلب حياتي وبالتحديد عندما كنت شاباً لقد كنتُ أنانياً بوقتي. ظننتُ أن لدي متسعٌ من الوقت. ظننت أن تأسيس أسرة كسجادة جديدة بوسعي تخزينها في دولابي ومدها عندما أصبح جاهزاً.

في سنين مضت واعدت فيها النساء، كنتُ أنهي العلاقة ما إن تطيل المرأة الحديث عن الأطفال. كان تركيزي منصباً على العمل. كنتُ أركز على التغطيات الرياضية وعلى الحصول على أكبر قدر من المهام. واستمرتْ أطول علاقة خضتها قبل علاقتي بالسيدة جانين حتى الخطوبة لكن الفتاة غيرت رأيها فجأة وهجرتني لتتزوج برجل آخر. وبعد عدة أشهر قضيتها في ألم وحيرة قلت لنفسي لعله خير.

قضيتُ فترة العشرينات من عمري أسعى للنجاح وفي بداية ثلاثيناتي التقيتُ بالسيدة جانين. ورغم أني همتُ بها إلا أني ترددت. كانت جميلة وصبورة وتأملت فيّ خيراً وإن لم أكن استحق. لكني كنتُ عندما أفكر بالزواج منها تداهمني ذكريات علاقتي السابقة فأتساءل لِم أنتَ متيقنٌ إلى هذا الحد؟ ربما قُدِّر لك قدرٌ آخر؟ عرفتُ الآن أن ذاك كان عذرٌ للإبقاء على صحبة السيدة جانين دون الإلتزام بمستقبل. كنتُ أنانياً يا تشيكا. وعندما أدركتُ أخيراً كم كنتُ محظوظاً بها كان الكثير من الوقت قد انقضى.

تزوجنا بعد مضي سبع سنين على لقاءنا الأول وكُنَّا حينها في أواخر الثلاثينات. و بعد زواجنا رغبتُ في تأجيل تكوين أسرة، وتعللتُ بأن علينا الاستمتاع لبعض الوقت بالزوجية ولا داع للعجلة. ولم يتبق لدينا في آخر الأمرسِوى الاستعجال، والذهاب للأطباء وتجربة طرق أخرى للإنجاب، لكن تلك الطرق لم تُكلل بالنجاح. وانقضت الأعوام وأصبح الأمر عديم الفائدة وخطراً.

وفي آخر الأمر رضينا بأدوار أخرى، العمة والعم والخالة والخال. كان عندنا سبعة أخوة وأخوات عندهم خمسة عشر طفلاً. جالسناهم، لعبنا معهم، حضرنا اجتماعاتهم المدرسية، أخذناهم للعشاء وقضينا العُطل سوياً، وفي عشية رأس السنة عندما تجتمع العائلات جلبنا لهم جميعهم الهدايا.

ولكننا كنا نستيقظ صبيحة رأس السنة بمفردنا في بيتنا الهادئ، وكنتُ أحياناً أسمع السيدة جانين تبكي في غرفة نومنا. لا بأس في ألَّا نرغب في إنجاب الأطفال يا تشيكا ولكن الحرمان منهم إن رغبنا بالإنجاب أمر مؤلم حقاً. لقد كانت غلطتي. إنَّ الأمر يؤلمني إلى يومنا هذا. في هذا العالم أنواع عديدة من الأنانية، ولكن أسوأها التسويف فلا أحد مِنَّا يعلم كم يملك من الوقت ومن سوء الأدب مع الله أن نظن أن لدينا مُتَّسع منه.

نحن

"سيد ميتش؟"

نعم؟

"هل اعتذرت؟"

إلى السيدة جانين؟ مراتٍ عدة.

"هل قالت لك لا بأس؟"

نوعاً ما.

"لأنك تعلمتَ درسك؟"

ماذا تعنين؟

"هذا ماكانت السيدة جانين ستقوله لي، هل تعلمتِ درسك يا تشيكا؟ فإن قلت نعم، تقول لي "إذاً لا بأس بما أنك تعلمت درسك" قلدتْ تشيكا صوت زوجتي.

"لا بأس يا تشيكا أنا أحبكِ يا تشيكا." تُحب تشيكا تكرار كلمة تشيكا.

قلت: أظن أني تعلمتُ درسي ومازلتُ أتعلم دروس جديدة.

"لكنك لا تدرس!"

دروس عن الدنيا وكيف نعيش فيها لا دروس المدرسة يا تشيكا. أنتِ علمتني بعض الدروس.

"أنا؟"

لقد بَدت متفاجأة حقاً، أحاطت وجهي بكفيها. دفء أصابعها يرخي شيئًا بداخلي، ثم خرج من فمي سؤال رغم أني أعرف الجواب جيداً: كيف جِئتِ إلى هنا؟

بَدت جدية للحظة ثم حركت لسانها مُصدرةً صوت بودا بودا بودا. ثم ضحكتْ وأفلتتْ وجهي واختفى الدفء

قالت: "هلاَّ ناولتني ورقة؟"

ناولتُها كراسةً صفراء.

"هلاّ ناولتني شيئاً أرسم به"

ناولتها قلماً.

"سيد ميتش هل تعالمت[8] مني شيئاً ؟"

علمتِني. نعم. لقد علمتني أشياء كثيرة.

إذاً هاك.

ألقت بالكراسة والقلم على مكتبي وقالت بنبرة مرتفعة: "أنا المعلمة الآن! عليك أن تكتب ما عالمتك! ولا تتوقف" ولوحت بأصبعها بطريقة أبوية " إلى أن تنتهي!"

لماذا؟

"لأني سأبقى إن فعلت."

قلت لها: انتظري، إلى الابد؟

لكنها غادرت.

أصل الفعل" teach تعلم" بدلا من" teached تعالم"، يفترض استخدام الفعل المجرد لأنه سبق بـ did ولما لم يكن هناك قاعدة مماثلة في العربية يمكنني إستخدامها لنقل الخطأ، استخدمت صيغة الفعل الخماسية "تعالم" بدلاً من الرباعية "تعلم" لتأدية المعنى المطلوب.

الفصل الثاني

صرنا في شهر أغسطس من عام ٢٠١٣، لقد أدرتُ الميتم لثلاث سنين، لدينا مياه جارية، طعامٌ صِحِّي، والعديد من الأطفال الجدد. ورغم أن الكثير من الأمور ما زالت لغزاً بالنسبة لي إلا أن سفري إلى هاييتي كل شهر جعل أموراً أخرى روتينية.

أهبطُ في مطار بورت او برنس، ثم أمُرُ بمراقبة الجوازات، ثم أمشي بجانب فرقة هاييتية صغيرة تعزف موسيقى ترحيبية. ثم أنزل من المصعد المتوقف كعادته.

كان مرشدنا السياحي ألين تشارلز يقف في الأسفل، وقد أمَّن طريقه للداخل (صار يعرف كل العاملين هنا تقريباً). نستعيدُ حقائبنا وندفع الأبواب لنخرج فكأننا ندخل نفقاً تنبعث منه السَّمُوم. يندفع نحوي رجال في قمصان مزررة قد تصبب منهم العرق يجذبون مني متاعي ويصيحون "مرحباً يا سيدي! ... أنا أساعدك، يا سيدي!" ثم نزاحم الحشد لنصل للسيارة.

بينما نحن نشق طريقنا وسط الزحام المروري، نمر بأنقاض خلَّفها الزلزال، ما زالت موجودة بعد مرور ثلاث سنين، وأكوام من النفايات بعضها يحترق، عَنزَةٌ هائمة، كلبٌ هزيل، حُفَرٌ بإمكانها ابتلاع مركبة كاملة. وأخيراً يفتح حارس أمن بوابة الميتم عند سماعه بوق السيارة، نجتاز البوابة ثم نضرب البوق مجدداً.

افتحُ باب السيارة فإذا بالعالم كله يتغير. أسمعُ أروع صوت، -أطفال يصيحون- يركضون نحوي. تقودهم أحدث القادمين لميتمنا، والتي لم يمض على قدومها سوى أسابيع قليلة تشيكا جيون. يصيح الأطفال الآخرون "سيد ميتش!" لكنها لم تكن تعرفني جيداً بعد، ومع ذلك حرصتْ أن تكون الأولى. يتعلق الأطفال برجلي ويقفزون حولي، وترفع هي ذراعيها، فأحملها. كثيراً ما أتعجب من الأطفال فهم يألفونك ويرغبون أن تحتضنهم سرعان مايلتقونك.

كيف حالك يا تشيكا جيون؟

لا تجيب، فهي لا تتحدث الانجليزية بعد.

"Sak pase?" أجرب تعبيراً كريولياً قريباً من "كيف حالك؟"

تبتسم وتجذب عنقي وتدفن رأسها في حضني.

فأقول لها: لا بأس ستتحدثين فيما بعد.

نحن

لم تزرني تشيكا حتى حل شهر مايو. لقد حَلَّت وانقضت ذكرى موتها السنوية. تلقينا مكالمات وبطاقات مواساة ورسائل الكترونية من الأحباب، لكن تشيكا لم تظهر. أنزلُ كل صباح إلى مكتبي واقضي وقتاً طويلاً على الحاسوب أشاهدُ فيديوهات قديمة لها، منتظراً مجيئها لكنها لا تأتي.

أحياناً أخذ القلم الذي تركته لي وأضعه فوق الكراسة وأنقرها بطرف القلم المغلق. ماذا علمتْني. من أين لي أن أبدأ؟ اظل أفكر في كلامها، حين قالت أنها ستبقى إن اكملت هذه المهمة. ورغم أني أعرف أن هذا ضربٌ من المُحال، إلا أني لا استطيع تجاهل الإغراء. إن كنتُ سأكتب عنها وعني وعنَّا جميعاً فربما هذه هي الطريقة للقيام بذلك.

وفي نهاية المطاف وبما أن تشيكا تحب الأرقام فقد رقمتُ الدروس المهمة التي تعلمتُها. كان بإمكاني تدوين المئات من الدروس. لكني اكتفيتُ بسبعة.

توفيت تشيكا في اليوم السابع من الشهر.

توفيتْ وعمرها سبع سنين.

انتظرتُ عودتها.

وأخيراً في صبيحة يوم اثنين ماطر، عاودت تشيكا الظهور. كانت تجلس على طرف مكتبي، ورجليها متدلية. لقد أسعدتني رؤيتها، لكني لم أقل إلا "صباح الخير أيتها الفتاة الجميلة." كما كنتُ أفعل كل صباح عندما كانت على قيد الحياة.

قالت بصوت أجش كأنما استيقظت لتوها من النوم "صباح الخير يا سيد ميتش." دَنَت من الأرضِ قليلاً وبدأت التفتيش عن القائمة.

افتقدتكِ يا تشيكا.

لم تجبْ، ولكن كان بإمكاني رؤية السعادة في وجهها. كُنَّا نخبر تشيكا كثيراً أننا نفتقدها أو نحبها وبدلاً من الرد، كانت تُميل رأسها فحسب، كأنها تراقب الكلمات وهي تطفو متجهة نحوها. وتستوعب الجملة كأن أشعة الشمس أضاءت وجهها.

"هل كتبتَ شيئاً يا سيد ميتش؟"

نعم.

أشرتُ إلى الكراسة الصفراء، فانحنت إلى الأمام لتراها جيداً.

كُتِب في السطر الأول "أنا أمانك".

قالت: "ما معنى ذاااك؟"

معناه يا تشيكا الإهتمام بشخص. حمايته من الخطر. تعرفين تلك الكلمة حماية.

يعني كالأسد أسلان؟

تقصد "سجلات نارنيا"[9] أسلان يرمز إلى المسيح، لعلي تعمقتُ قليلاً في الشرح.

رددت: نوعاً ما. إني أكتب قائمة بالأمور التي علمتني إياها. الحماية أول وأهم درس. كتفت ذراعيها وقالت لم أفهم.

[9] سجلات نارنيا هي سلسلة فانتازيا خيالية تتكون من سبع روايات من تأليف المؤلف الشهير سي.إس.لويس، هذه السلسلة من أشهر أدب الأطفال. نارنيا عالم خيالي يتضمن السحر ووحوش خرافية وحيوانات متكلمة.

الدرس الأول

أنا أمانك

حسناً، لنرى. هل تذكرين حين تأرجحتِ عالياً بأرجوحة الميتم وكدتِ تسقطين من المقعد فأمسكتُ الأرجوحة وأبطأت حركتها، أم تذكرين حين ذهبنا للمحيط فأمسكتُ تحت ذراعيك لكيلا ينزل رأسك تحت الماء.

هذا يا تشيكا نوعٌ من أنواعِ الحماية. ربما يبدو لك الأمر طبيعياً شخص بالغ يتدخل لمنع حدوث مكروه، لكنِّي كنتُ حديث عهد به. قبل مجيئي لهاييتي لم يكن لدي ما أحميه في الغالب إلا السيدة جانين، مهنتي، ونفسي. حميتُ صحتنا، مالنا، كُتُبِي، وسُمعتي المهنية. لقد قلت لكِ أنِّي كنتُ أنانياً، لكن لم يكن هناك من يحتاجُ إلي كاحتياج مولود يبكي إلى أبويه فيدركان أن ليس عنده سواهما وأن عليهما تلبية ندءاه وتجاهل ما سواه.

وعلى قدر الحب الذي أكنناه لكم أنا والسيدة جانين إلا أننا لم نَخُض هذه التجربة مع أي من أطفال الميتم بمن فيهم أنتِ يا تشيكا. لم يتسنى لنا حملكم عندما جئتم لهذا العالم غِضاض أطرياء. ولم نشجعكم عندما خطوتم خطواتكم الأولى، ولم نحزم عند سفرنا حقائب الحفائظ وبسكويت الحيوانات.

وفي الحقيقة لم نلتقِ بمعظمكم إلا وقد أصبح بمقدوركم المشي والكلام، وقد مرَّ معظمكم بصعاب رهيبة: أحد إخوتكم في البعثة هُجر في الغابة وهو رضيع، أخواتكم الأربع الصغيرات اللاتي جِئْنَ من مدينة جيرمي فقدن أبائهن بسبب زلزال أو إعصار، وبعضهن عِشنَ تحت أنقاض بيوتهن لشهور.

لم أستطع حمايتهم من تلك الصعاب. ولكني عقدت العزم أن أحميهم من صعاب قادمة كما عقدتُ العزم أن أحميك. تَحَتَّم علي النظر بعين الاعتبار إلى أمور لم تخطر ببالي من قبل مثل كيف أن الأرضيات زلقة، و كيف أن الخرسانة التي يلعب فيها الأطفال كرة القدم محفورة، وكيف نَحُولُ دُون ابتلاع الأطفال الصغار قطع الألعاب الصغيرة، وهناك أيضاً حاويات ديزل و وقود المولد التي يمكن أن تطالها الأيدي الخطأ.

خطر لي في الشهور الأولى أني إن ركزتُ قليلاً فإن باستطاعتي حمايتهم من أي مكروه. لكني كنتُ كمن يمشي بين سرب من النحل كلما حاولتُ اتقاء شرها كلما زاد عددها. فكلما استقبلنا المزيد من الأطفال كلما قلقتُ أكثر بسبب المبنى (فهو ليس مضاداً للزلازل) و الدور العلوي (ماذا لو سقط احدهم) و خزانات المياه (ماذا لو خالط الماء شيء سام) أكلني الهم.

وشيئاً فشيئاً أدركتُ أنه لايغني من قدر. كان ذلك صعباً. لا أُحب الإقرار بضعفي ولست أتقن التوكل على الله وهو الحافظ فقد حفظ كثيراً من الهاييتيين بعينه التي لاتنام. أصبحت حماية الأطفال شُغلي الشاغل. وبما أنكم كنتم أطفالاً

صغاراً فلم تشغلني صحتكم على المدى الطويل بقدر ما شغلتني الحوادث والمصائب. وفي يوم من الأيام عندما كنتُ في ميشيغان وردتني مكالمة هاتفية من السيد ألين.

"سيدي هناك خطب ما بتشيكا."

مالخطب؟

"وجهها متدلٍ ومشيتها مضحكة"

هل أخذتها للطبيب؟

"نعم يا سيدي."

ماذا فعل؟

"وصف لها قطرة عيون."

ألين، ليست المشكلة في عينيها، هل يمكنك أن تجد إختصاصي أعصاب؟

"سيدي؟"

طبيب أعصاب يا ألين[10].

"سأعثر على واحد."

أذكر أني أغلقتُ الهاتف، وقد اعتراني إضطراب. كانت المكالمة لاتبشر بخير مثل دوي رعد في ظهيرة هاييتية تليه عاصفة مطرية.

لم نحتج يا تشيكا لإختصاصي أعصاب قط. بالطبع احتجنا لطبيب جلدية، وبالتأكيد طبيب أسنان، علاج كحة، علاج إسهال، تيلينول للأطفال[11]، أما إختصاصي أعصاب!

تساءلت، مامدى خطورة الوضع ياترى؟

***

[10] طبيب أعصاب nerve doctor استخدمها الكاتب لتبسيط مسمى nurrologist إختصاصي أعصاب للمتصل.

[11] دواء مسكن للألم وخافض للحرارة

أخيراً عندما وجدنا إختصاصي الأعصاب ذاك، لاحظ ارتخاء فمكِ وعينكِ اليسرى ومشيتكِ الغريبة، فأمر بتصوير رنين مغناطيسي. في ذاك الزمان لم يكن هناك إلا جهاز تصوير رنين مغناطيسي واحد في هاييتي، وتكلفة حجز الموعد ٧٥٠ دولاراً.

أخذك السيد ألين إلى هناك، غادرتم قبل شروق الشمس، وبعد ست ساعات نادت ممرضة باسمكِ أخيراً، أسقتكِ شراباً أنامك، وُضعتِ في أسطوانة كبيرة ولَّدَت موجات راديو وحقلاً مغناطيسياً حول رأسك، كانت النتائج صوراً أظهرتك من الداخل.

لقد كنتُ أقولُ للناس يا تشيكا أنكِ دافئة، فضولية، واثقة، ومرحة في أعماقكِ، إلا أنَّ تقرير تصوير الرنين المغناطيسي كان طبياً بحتاً.

"هناك كتلة في دماغ الطفلة، لا نعلم ماهيتها، وأياً ما كانت فلا يوجد في هاييتي من يستطيع مساعدتها."

قرأتُ ذلك.

ثم تغير كل ما عرفتُهُ عن الحماية.

نحن

"سيد ميتش؟"

نعم؟

"لقد كان الشَرَاب حلواً."

أيُّ شراب؟

"الشَراب الذي أسقتني إياه الممرضة. لقد أنعسني."

لهذا شربتيه.

"لكني استيقظت."

داخل الجهاز؟

"نعم وأجهشتُ بالبكاء."

استيقظتِ داخل جهاز تصوير الرنين المغناطيسي؟ ومالذي حدث بعدها؟

"أشربوني المزيد، فنمت."

هززتُ رأسي. من الحماقة مقارنة نظام الرعاية الطبية الأميركي بذاك الذي في هاييتي، فالصعاب التي يواجهها الأطباء والممرضون ممتنعة عن التصور أو تكاد، فهناك الفقر، سوء التغذية، صعوبة الحصول على رعاية صحية أو تعليم. ما زلت أذكر الصدمة التي سببها لي تقرير تصوير الرنين المغناطيسي، "أياً ماكانت، فلا يوجد في هاييتي من يستطيع مساعدتها." بدا كإستسلام أكثر منه تشخيصاً.

"سيد ميتش؟"

نعم؟

اتكأتْ على رجلي، مددتُ يدي كما كنتُ أفعل في السابق لِأمسك كتفيها لكن أصابعي اخترقتها، أنسى دائماً قواعد الاشتباك.

قالت: "اخبرني عن لما جئت إلى أميركا."

أنتِ

حسناً، إليك ما أذكره. كنتِ أول من جئنا به إلى هذه البلاد، يوم غادرتِ البعثة اصطف الأطفال الآخرون لعناقك، ولوحوا مودعين حين اجتازت السيارة البوابات، أظن أن بعضهم ظن أنه لن يراك مجدداً.

طرتِ بصحبة السيد ألين إلى ميامي ثم إلى ديترويت مرتدية كنزة بيضاء في حر يونيو. وفي أول حمام أميركي فتحتِ الصنبور ثم أخرجتِ يديك بسرعة من تحت الماء، لم تشعري بحرارة مياه الصنابير من قبل، بالنسبة لك لقد كانت هذه بلاد عجيبة رغم أنك لم تقضِ فيها سوى ليلة واحدة.

كُنَّا أنا والسيدة جانين بانتظاركِ في المنزل. رتبت السيدة جانين بطانيات ودمى ملونة لتشعركِ بالترحاب، وفي ذاك الوقت كُنَّا نأمل أن يُشَخِص الأطباء العلة ويعالجوها سريعاً، وستتعافين تحت ناظرينا، بعدها يمكنكِ العودة لهاييتي، ظننا أن هذا سيستغرق أسابيع قليلة، وعندما نعود بذاكرتينا لتلك الأيام نعلم كم كُنَّا ساذجين حقاً.

علي القول أنك لم تكوني خائفة حين جئتِ إلى هنا يا تشيكا لكنك لم تتحدثي كثيراً أيضاً، ولم تغلب عليك العاطفة، كل مافعلتِه هو النظر إلى ما حولك، لا ألومك فكل ما حولك كان جديداً عليكِ، إشارات المرور، الطرق العامة، منازل بحدائق، صناديق بريد، تلفازات في غرف مختلفة، لابد أن هذا كان كثيراً عليك. كثيراً ما اتساءل عندما ذهبتِ إلى فراشك تلك الليلة كم ظننتِ أنك تبعدين عن البعثة.

في اليوم الذي تلى وصولك ذهبنا لإجراء الفحوصات في مستشفى موت للأطفال Children's Hospital في مدينة آن آربر، كان المستشفى جزءًا من جامعة ميشيغان، مدرسة رائعة تمنيتُ لو درستِ فيها أنتِ والأطفال الآخرون يوماً ما، كان المبنى أطول مبنىً رأيتِهِ في حياتك، ظللتِ تحدقين إلى الأعلى عند دخولنا، اقتربنا من المكتب الأمامي، فرحب بنا رجل، وأعطاكِ سوار معصم، لقد أحببتهِ كثيراً كأنه سوارٌ حقيقي.

التفت إليّ الرجلُ بعدها وسألني: "ماصلة قرابتك بالمريضة؟" ترددتُ للحظة كل من حولي كانوا أباء وأمهات جميعهم يشبهون أطفالهم، الشعر نفسه، لون البشرة نفسه، تفاصيل الوجه نفسها. شعرتُ كأني ألقي القبض علي لمحاولتي خداع شخص آخر. أجبتْ:

"وصيٌ شرعي" لأن هذا المسمى صحيح عملياً. كتب الرجل شيئاً ثم طلب مني الوقوف أمام كاميرا.

صحتِ فجأة "سيد ميتش انظر!" اشرتِ إلى مُجسم سوبرمان كبير في الردهة. أفلتُ يدكِ فركضتِ نحوه، في اللحظة التي ناولني فيها الرجل ملصقاً عليه صورة غير واضحة لوجهي. كان أعلى الصورة كلمة واحدة: والد

فألصقتها بقميصي.

صرنا في خريف ٢٠١٣، لقد مضى على مجيء تشيكا جيون لميتمنا شهور قليلة، ومع أنها الأصغر حجماً وعمراً إلا أنها تقف الأولى في طابور الحمام، والمدرسة، وكأنها تستمتع بقيادة الأطفال الآخرين، ورغم ذلك فإني كنتُ كثيراً ما أراها تلعب وحدها، مُفضلةً أن تأخذ دمية إلى زاوية خاصة. غالباً مايكون الأطفال الجدد هادئون، يبحثون عن كتاب تلوين أو دمية ليتشبثوا بها، ربما لأنه ليس لديهم شيئٌ من ماضيهم ليتشبثوا به. اتساءل كم من الوقت سميضي قبل أن تشعر تشيكا بالألفة بيننا.

ذات مساء كنا نؤدي عباداتنا المسائية، صلوات و أغاني مسيحية نفضي فيها عما في قلوبنا، تتخللها أصوات قرع طبول البونجو، وتحييها أصوات رقيقة صداحة. يصيح الأطفال باسم أغنية ثم يشرعون في غنائها بعضهم يغني بالكريولية وبعضهم بالإنجليزية ، أغاني مثل "أدعُ الله"، "ونذرت نفسي"، "Jeriko Miray-La Kraze و Mwen se Solda Jezi""[12] أحياناً يبدو الأمر كالصراخ وسط جماهير رياضية. لكنه يبقى منظراً يدعو للتأمل. صغار قنوعون بما لديهم رغم قلته يشكرون الله على نعمه. في هذه الليلة، كنتُ واقفاً عند جدار وبجانبي مجموعةٌ من الأطفال متكئون علي وفي منتصف أغنية بهيجة، جذبت السيدة جانين انتباهي حينما قالت وهي تؤشر:"انظر!"

على بعد أقدام قليلة، تشيكا جيون في منامة زرقاء تصفق وتهز رأسها على الإيقاع، عيناها مغمضتان، ترقص وتضحك في منتصف الكلمات، عند انتهاء الأغنية، ترمي بيديها على شعرها المضفر، وتبتسم ابتسامة عذبة ملئ فمها. كأنها تقول "لقد كان ذاك ممتعاً، هلاّ نعيد الكرة؟"

خاطبتُ نفسي قائلاً: لقد أَلِفتنا بفضل الدعاء.

---

[12]أغنيتان هاييتيتان " جيريكو ميراي لاكرازي" و "موين سي سولدا".

أنا

أظن يا تشيكا أن علي تفسير ماذا كنت أفعل في هاييتي عندما جئتِ الينا. وكيف انتهى بي المطاف أدير ميتماً يبعد ١٧٠٠ ميلاً عن موطني.

بدأ الأمر كما تبدأ الأمور الجيدة بمصادفة.

بعد حدوث الزلزال بأيام قليلة، استضفتُ في برنامج إذاعي أقدمه في ديترويت قِساً محلياً يدعى جون هيرن الإبن. كان شريكاً في بعثة بورت او برنس وأهمَّهُ أنها ربما دمرت وأن الأطفال هناك ربما ماتوا، لم يستطع الإتصال بهم، (لا يستطيع الإتصال حينها إلا قلة) وجاء يطلب المعونة.

أثرت فيَّ قصته كثيراً. لا أعلم لِم بالتحديد. في دوري في وظيفة الصحافي، أجريتُ مقابلاتٍ مع أناس كثر بعد الكوارث الطبيعية. لقد كنتُ أحثُّ الناس دائماً على تقديم المساعدة، إلا أني نادراً ماكنتُ أقدمها.

لكن هذه الحادثة كانت مختلفة، أرعبني جهلُنا بمصير الأطفال. فحاولتُ تنظيم رحلة للقس، ولكن لم يكن هناك رحلات تجارية ذاهبة إلى هاييتي حينها. إلا أني أخيراً استطعتُ استئجار طائرة صغيرة وطيارين مستعدين أن يطيرا بنا. كانت الطائرة تتسع لستة ركاب، فجلب هيرن أباه جون الذي ساعدَ في إنشاء البعثة. وامرأة مسنة اسمها فلورنس "الأم" موفيت، مبعوثة هادئة ولطيفة عاشت وعملت في الميتم لسنين عدة. ووظفتُ زميلين ملئا المقعدين المتبقية. وبمساعدة عضو في مجلس الشيوخ اسمه كارل ليڤن منحنا -الجيش الأمريكي المتحكم بالمرور الجوي إلى هاييتي بعد حدوث الزلزال- فسحة ١٠ دقائق من الوقت لنهبط، وأقلعنا من بونتياك في ميشيغان.

وبعد خمس ساعات هبطنا في مدرج مطار أو بالأصح بقايا مطار بورت او برنس المستعر.

عندما اطفئ المحرك، خلعتُ معطفي ووضعتهُ على المقعد ونزلت من الطائرة. كانت الشمس حامية. وكان الهواء ساكناً. وكان في الأفق جبال، العديد منها. (أرض الجبال الشاهقة هو المعنى الأصلي لكلمة هاييتي). اكتنف المكان صمت، صمت مخيف، كأن الدولة غاصت في الصدمة التي خلفها الزلزال. تفحصتُ واجهة محطة الركاب رملية اللون. كُتب عليها: مطار توسان لوفيرتير الدولي. سُمي المطار بقائد الثورة الهاييتية قبل أكثر من قرنين مضت.

وقد أحدث الزلزال شرخاً في كلمة توسان.

أفرغنا حمولتنا بأنفسنا. لم يساعدنا في ذاك موظف ولا رجل أمن. كانت الدلالة الوحيدة على مطار عامل طاولة في ردهة المحطة يجلس خلفها نساء وفوقهن ورقة أُلصِقت إلى الجدار كُتب فيها: "قف!!! مكتب الهجرة الهاييتي." اجتزنا المكتب في غضون دقيقة.

استقللنا في رحلتنا إلى الميتم شاحنة نقل غير ثابتة قد فقدت باباً، استغرقت الرحلة عشرين دقيقة، لكنها حُفرت في ذاكرتي للأبد: طريقاً بعد طريق مررنا بجبال رمادية من ركام مباني كانت قائمة في الماضي قد سُويت الآن بالأرض كأنما سُحقت في خلاط. في أعلى جبال الركام هذه إما رجل طاولة معترضة، أو مرتبة، أو حطام سيارات مهجور تحت الأنقاض، وأناسٌ يجوبون الشوارع كجثث عادت للحياة، وباعة جوالة قد علا الإحباط وجوههم جلسوا قرب أكوام من الثياب، ونساءٌ يحُمن حول فواكه وخضار عفنة، وأطفالٌ قد وقفوا في طابور لجمع الماء من برك الشوارع.

بدا لي أنَّ الناس كلهم كانو خارج بيوتهم. لم أر أحداً مُطِلاً من نافذة أو خارجاً من باب. عرفت فيما بعد أن الهاييتيين يرفضون دخول منازلهم منذ شهور خشية أن ينهار مابقي من بناءها فوقهم. كان الهواء ملوثاً برائحة الديزل والنفايات المحترقة، مما سبب لي ألماً في عيني قبل أن نصل إلى وجهتنا.

لحسن الحظ لم يصب الميتم أذى. لكن اجتاحه دخلاء خالطوا الأطفال في خيامهم المؤقتة. فبعد حدوث الكوارث الطبيعية في هاييتي، يهرع الناس إلى المياتم والمستشفيات، واثقين أنها ستكون وجهة هيئات الإغاثة الأولى عند توزيع الطعام. لكني لم أر غوثاً ولا طعاماً عدا أرز وفاصولياء طَبَخَتها على نار فحم امرأة افترض أنها موظفة في الميتم.

كان من المستحيل معرفة من ينتمي للميتم أصلاً ومن الدخيل، في الفناء حبال غسيل متقاطعة ، ومراتب رغوية متناثرة فوق التراب، كان هناك العديد من الناس ممن أعياهم التعب يتكئون على الجدران، مغمضين أعينهم من الشمس، سألونا طعاماً، وعندما فتحنا الصناديق التي ملئنا بها الطائرة و التي كان فيها قناني مياه، ومناديل ساني كلوث، وعلب أسبرين، وعلب كوكا احتشدوا حولنا.

أداخ رأسي كل ماكنت أرى، كان الهواء حاراً للغاية، فتبلل قميصي بالعرق، ومن حماقتي فقد كنتُ أرتدي بنطال جينز أسود فاحتبست الحرارة في رجليّ، كان التنفسُ أمراً شاقاً.

وبينما كنتُ واقفًا ويديَّ إلى جانبي شعرت بأيدٍ صغيرة شبكت أصابعها بأصابعي. فألقيتُ نظرة للأسفل فرأيتُ صبياً وصبيةً أحدهما على يميني والآخر على شمالي. لستُ أذكر من هما يا تشيكا ولا أعرف هل كانا ينتميان إلى الميتم أصلاً، لكنهما ابتسما وقاداني للأمام، أدركتُ الآن أنهما كانا يقودانني إلى عالمهما، وإلى عالمكِ لاحقاً.

ولكن حسناً، لم أفسر لكِ كيف تحولت هذه الرحلة إلى التزام. فور عودتي إلى دترويت، كتبتُ عمَّا رأيته، وسألتُ الناس العون. نظمنا في وقت وجيز فريقاً من المتطوعين: سقافون، سباكون، كهربائيون، مقاولون. كان مجموعهم اثنان وثلاثون. لقبوا أنفسهم "ديترويت مسل كرو". [13] وضبنا الإمدادات، الأدوات، وآلات صغيرة في طائرتين تبرع

[13] Detroit Muscle Crew فريق تطوعي مكون من محترفين يساعدون في تجديد المنازل وصيانتها

بهما روجر بنسكي سائق سيارات السباق سابقاً الذي أصبح رجل أعمال ناجح، و آرت فان إلسلاندر، مالك سلسلة محلات أثاث آرت فان، وعدنا إلى بورت او برينس.

وعدنا مرة أخرى

وأخرى

وأخرى.

بنينا في أكثر من تسع رحلات متفرقة، وبمساعدة عمال هاييتيين حمامات، مطبخ، غرفة طعام، ومنطقة للغسيل، وبلطنا بالقرميد، وركبنا أسرة مزدوجة، وطلينا بألوان زاهية كألوان الحلوى المثلجة الجدران المتسخة، ومع مرور الوقت بنينا مدرسة مكونة من ثلاث غرف، وبنينا أيضاً أدشاش الميتم الأولى، كانت مبنية على نحو بسيط أنبوب بلاستيكي يمتد من خزان مياه في السطح، كان الأطفال قبل بناءنا لها يستحمون بماء صابوني يُسكب عليهم من سطلٍ أحمر كبير فقط.

عندما حان وقت اختبار الأدشاش، تزاحم الأطفال الأصغر سناً في الداخل، مرتدين سراويل قصيرة أو ملابس داخلية، محدقين بفضول إلى المقابض والصنبور، عددْنا "واحد، اثنان، ثلاثة" ثم سمحنا للماء بالتدفق، تدفق الماء لأسفل وصاحوا في جذل، كأنما جربوا عاصفة الله الممطرة الأولى، خبطوا الماء و ضحكوا وغنوا ورقصوا. لقد كانوا مبتهجين حقاً. كانوا يجربون شيئاً أعتدتُ القيام به بلا وعي كل صباح في حياتي لقد أثر الأمر فيّ، لقد شعرتُ به يسري في جسدي، ربما كان إلهاماً، لأن هذه الكلمة تعني تجلي شيء ساحر، هكذا شعرتُ في تلك اللحظة، وفي الأيام اللاحقة التي قضيتها هناك. رغم إرهاقي إلا أني أحسست بسموٍ سماوي. وجدتُ نفسي أضحك بحرية أكثر في هاييتي، وتحسن نومي أيضاً، لقد أحسستُ أنَّ الأعباء التي تثقل كاهلي تتناقص يوماً بعد يوم، رغم كمية العمل الذي يبدأ مع شروق الشمس وينتهي مع حلول الظلام و أسراب البعوض.

قلت للسيدة جانين: "باستطاعتنا إحداث تغيير هنا".

فردَّت: "إذاً علينا الاستمرار".

فاستمررنا، أطيرُ إلى هناك كل شهر. كانت حياتي في أميركا عبارة عن تفكير، تأليف قصص، اتخاذ قرارات، ضبط جدولي، الرد على عدة مكالمات هاتفية في آن واحد. أما في هاييتي فنحن نعمل جُلَّ وقتنا ولكن عملنا يطعم صغاراً وينيمهم ويؤويهم. أشياء أساسية لا يختلف اثنان في أهميتها. تزداد علاقتي بالصغار قوة مع كل زيارة، لقد حفظتُ اسمائهم وطباعهم، كانو يحيوني بوثبات احتضان، كان الكبار سبب مجيئي لهاييتي يا تشيكا لكن الصغار كانو سبب عودتي إليها.

التقيتُ مجدداً بجون هيرن الأب في ديترويت كان عمره في منتصف الثمانينات. حدثني عن ماضيه مع هذ المكان. قال لي أن العبء ازداد عليه مع مرور الوقت، وشكرني على التطورات الملموسة التي قام بها فريقنا مسل كرو. لكنه اعترف أنه لم يكن يملك المال أيضاً ليشغل الميتم ولم يكسب مالاً لأيام بعد ذلك. لم يستطع الذهاب الى هناك إلا بانتظام.

كان ذاك حينما استشرت مؤسسات خيرية أسستها في ديترويت في غمرة شعور لم أعرف له وصفاً إلى يومنا هذا وقلت بلا تفكير "إن رغبتْ، استطيع تولي مسؤولية إدارة الميتم أظنني استطيع العثور على مال وأشخاص أيضاً" ضم يديه وابتسم، وقعنا أوراقاً، وبقيت هناك منذ ذاك الح_

نحن

قاطعتني تشيكا متنهدة "حسناً، حسناً، حسناً."

ماذا؟

رفعتْ أحد أكواب قهوتي.

"تحدثتَ كثيراً عن نفسك."

ثم أنزلتْ الكوب.

"حدثني عن نفسي!"

كان من المفترض أن أُذكرها بالآداب، لكني لم أفعل، لا أستطيع لوم الأطفال الذين يبحثون عن الاهتمام، الذين قد يفعلون أي شيء ليحصلوا عليه، أحبتْ تشيكا أن تكون مركز الاهتمام، إن تحدثنا أنا والسيدة جانين لمدة طويلة، فإن تشيكا ستصيح؛ "أنتما مالذي تتحدثان عنه؟" وإن لعبنا بلوحة اللعب فإنها تأخذ القطع وتقود اللعب "أنتَ الأخضر وأنا الأحمر والأحمر هو الرئيس."

عندما جاءتنا كانت لغتها الانجليزية محدودة فكُنَّا نستخدم جُملاً مثل:

ساعدني، وعندما كانت تمسك موزة، أنا لستُ استطيع فتحها، وإن عثرت على لعبة ضائعة هناك هو، استغرقتْ وقتاً في تعلم الضمائر، ولكن بإنقضاء الأسابيع بدأ محصول الجمل يزداد عند تشيكا، لحِظنا تطوراً استثنائياً، وفضولاً لاحدود له عن ماضيها ومستقبلها.

سألتنا ذات ليلة "متى سأُحِّب؟"

نظرنا أنا وجانين إلى بعضنا.

قالت جانين أخيراً "حسناً عندما تكبرين وتلتقين بالشخص المناسب."

"ومتى سيحدث هذا؟"

"لانعلم."

سألتُها "لماذا تريدين أن تُحبي يا تشيكا؟"

ارتسم على وجهها تعبير"لأنكما وقعتما في الحب" وكتفتْ ذراعيها "وأريد أن أُحِّب!" قالتها بتأكيد شديد. ظننتُ لوهلة أنَّ الله سيتستجيبُ لها ويخلق لها شخصاً في تلك اللحظة وذاك المكان.

سألتها "ومن هو الشخص الذي تريدين أن تقعي في حبه؟"

أجابت "لا أعلم أريد أن أقع بحب شخص لم أتلق به من قبل."

"لماذا؟"

"هكذا وقعتما في الحب، وقعتَ في حب السيدة جانين وأنت لم تلتق بها من قبل!"

أردتُ قول الكثير تلك اللحظة لكن طريقة تفكيرها أخرستني، فهي بطريقة ما تقصد أنها تريد حباً كحُبنا، أشعرنا كلامها بأننا كنا نقوم بشيء صائب.

قالت الان: "سيد ميتش؟"

همم؟

أعادت كوب القهوة لمكانه واتكأت بيديها على ركبتي، ونظرتْ في عيني. ثم سألتني أخيراً السؤال الذي لم تسألني اياه من قبل.

"كيف مرضتْ؟"

أنتِ

حسناً.

كيف أشرح الأمر؟

بالطبع تعرفين أن الكلمة الكريولية التي تعبر عن الرأس هي tèt. يستخدمها الهاييتيون في تعابير عدة. مثل tèt vire (رأس دائخ) وتعني دوار، و tèt ansanm (رؤوس مجتمعة) وتعني وحدة، tèt frèt (رأسٌ بارد) وتعني هادئ، و tèt chaje (رأس محشو) وتعني مشكلة.

من الممكن أنك لم تتعلمي التعبير الأخير يا تشيكا، لكنه ملائم لقصتك، لأن معظم أعضائك كانت بحالة مثالية عندما جئتِ إلينا رئتاكِ وبطنكِ وقلبك، لكن في رأسك في جزء من دماغكِ يسمونه الجسر كان رأسكِ tèt chaje كان محشواً بشيء وسيتبين لنا أنَّ ذاك الشيء كان مشكلة حقاً.

في اليوم الأول في مستشفى آن هاربر أخذ الأطباء صورة رنين مغناطيسية أخرى، لم يعطوكِ شَراباً منوماً ولم ننتظر طويلاً، نزلنا بالمصعد إلى غرفة مضاءة جيداً ومطهرة ثم أدخلوكِ اسطوانة عملاقة وشغلوا موسيقى من خلال سماعات، وبعدها عُدنا إلى المنزل في موعد العَشاء.

لكن عندما جاءت النتائج، رأى الأطباء نفس الشيء الذي رآه اختصاصي الأعصاب الهاييتي: ورمٌ قد تقرفص في دماغك. بقعة ضخمة في المسح الضوئي قد انتشرت، وقد اتفقوا أنَّه لا يفترض به أن يكون هناك، وأجمعوا أنه يجب أن يستأصل من دماغك. ولكنهم اختلفوا فيما إذا كان الأمر يستحق المخاطرة أم لا.

انقضت الأيام وأخيراً اجتمع أطباء مجلس الأورام وصوتوا لأنَّ تصويتهم كتصويتنا في الميتم، يجب أن يكونوا واقعيين مع الأشخاص الذين يجيئون إليهم، صوتَ خمسة من الثمانية بنعم، أي إجراء العملية، حاولتُ ألاَّ أفكر في الثلاثة الذين صوتوا بلا.

أردنا أن نهيئكِ للأحداث القادمة، لكن إنجليزيتكِ ذاك الوقت لم تكن جيدة كما أصبحت الآن، وكذلك كانت كريوليتي، فقررنا أنا والسيدة جانين أنَّ علينا تثقيف أنفسنا فيما يخص جراحة الدماغ بدلاً من تثقيفك، ربما كان قرارنا صائباً وربما لم يكن، لكني أظنه كان صائباً، كان عمرك خمسة سنين حينها، ولم نرد أن نشغلك بصور الفصوص والتجاويف عن الإستمتاع بطفولتك.

وعندما أيقظناك يوم الجراحة، احتضناكِ وقبلناكِ كما نفعل كل يوم، وغنينا أغنية صباح الخير فيما كنت ترتدين ثيابكِ قبل بزوغ الشمس، أخبرناك أننا ذاهبون لمبنى السوبرمان، حيث سيساعدكِ الأطباء لتصبحي أفضل، تثاءبتِ واخترتِ دمية للرحلة، وأجلستكِ في مقعد السيارة.

وبعد خمس سنين، وخمسة أشهر، وستة أيام من مجيئك لهذا العالم في البيت الأسمنتي قرب شجرة فاكهة الخبز، جئتِ لمستشفى موت للأطفال، خصصوا لنا غرفة وجلبوا لك ثوباً أزرق زاهٍ مزين برسومات دببة راقصة، وساعدتكِ السيدة جانين في ارتداءه.

طلبوا مني توقيع أوراق الموافقة في الردهة، كان في الأوراق رسوم بيانية، وشروحات، أتذكر جيداً الجزء الذي ذُكرت فيه المخاطر -خطر جلطة دموية، خطر تبديل الدم، خطر أعراض جانبية محتملة منها الموت-. حاولتُ المرور عليها سريعاً، مطمئناً نفسي أنها مجرد متطلبات وليست بالضرورة تحذيرات كوجود فرصة في هطول مطر في يوم مشمس.

دخلتِ غرفة العمليات بعد ساعتين وأنتِ مُخدرة، أُعِدت الأدوات، أحاطوك الأطباء والممرضين، وأخيراً فتح رأسكِ الصغير الثمين جراح أعصاب اسمه هيو جارتون رجل نحيف بقامة مثالية، يُحب تسلق الجبال في وقت فراغه، عندما فتح رأسكِ رأى الورم أمام ناظريه.

قضى وقتاً طويلاً وهو يهاجمه ويحاول إزالته، استغرق ساعات، كان يزيل قليلاً من هنا وأكثر قليلاً من هناك، كان الورم متشابكاً بأجزاء مهمة جداً في دماغك فلم يستطع إزالته كلياً؛ إنَّ الأمر يشبه لعبة العمليات تلك التي يلعبها الأطفال في البعثة، عندما تلمسون الحافة، يرن الجرس.

أزال الطبيب جارتون عشرة بالمائة من الكتلة وأخذاً بالحيطة قرر التوقف عند هذا الحد، خاطوا رأسكِ ونقلوكِ على نقالة لمنطقة الإفاقة، كُنَّا أنا والسيدة جانين ننتظر كل هذا الوقت في الردهة الكبيرة التي كان فيها جرس يضاء ليُعلمنا بالتحديثات الدورية، وكنَّا نقفز عند كل رسالة جديدة.

أخيراً في وقت متأخر من الظهيرة، أضاء "اكتملت الجراحة"، بعد ساعة رأيناكِ لأول مرة بعد الجراحة، كنتِ نائمةً على جانبك، صغيرة جداً لم تشغري إلا نصف النقالة، بأنابيب وأسلاك متصلة بجسدك، وضمادة بيضاء كبيرة بربطة صغيرة ملفوفة حول رأسك.

آلمني قلبي.

ربما كانت تلك أصعب لحظات المستشفى التي سَنَمُّر بها سوياً يا تشيكا، لأنِّي حتى تلك اللحظة ورغم صور الرنين المغناطيسي والإستشارات وتوقيع أوراق الموافقة لم أستوعب بعد خطورة حالتك، ففي أيامك الأولى معنا كنتِ مرحة، تطاردينني في أرجاء المنزل، لقد سلبتني تلك اللحظات لُبّي.

ها أنتِ ذي فوق تلك النقالة صغيرة جداً مُخدرة بفعل البنج مُحاطة بأجهزة المراقبة. لقد فتحوا رأسك، وعملوا لساعات، ولم يقل أحدهم لقد أزلناه كله. لم يطمئنونا كل ما حصلنا عليه مزيد من الأسئلة وبضعة أيام فقط قبل أن يعاود المرض الظهور. قالوا أنك ستتألمين لبضعة أيام، وأن علينا توقع بعض التحديات حتى وإن تناولتِ أدويتك.

ظللتُ أفكر لقد سمحتُ لهم أن يُجروا العملية، لقد أعطيتهم موافقتي، أمغصتني فكرة أن قراراتي ربما آذتكِ بأي شكل من الأشكال.

لقد شعرتُ أيضاً بالضعف يا تشيكا، قد يصعب عليك فهم الأمر، لكن لحماقتي كنتُ حتى تلك اللحظة أشعر أنني ممسك بزمام الأمور أمورك وأمور الأطفال الآخرين، كسوبر مان الواقف في تلك الردهة، أُملك القوة والمصادر وإن كنتُ أجهل شيئاً فإني بإمكاني تعلمه والإستمرار بالقيادة، أطفالنا صغار وأنا الكبير، وأستطيع تولي أمر أي شيء يعترض طريقنا.

انمحى ذاك الشعور وبدَّله توجس عندما وقفتُ أمامكِ ذاك اليوم، مواجهاً أول حالة صحية حرجة طرأت طيلة خمس سنوات ادرت فيها الميتم، صحيح أنكِ كنت أصغر مني، لكن ماذا لو كان هذا التحدي أكبر من كلينا؟

"سنة جديدة سعيدة!"

صرنا في مطلع عام ٢٠١٤ والأطفال يقفزون في الأرجاء ويغنون نشيد "Auld Lang Syne"[14] "نشيد الوداع" الذي علمتهم أيَّاه بدون كلمات لأني لا أعرفها، لذا نحن فقط نصيح "دا-دااا، دا-دا-دا، دا، دا-دااا . . ."

كانت تلك تقاليدنا منذ أول شتاء قضيتهُ في البعثة. كل عام في يوم ٣١ من ديسمبر نتناول عشاءً خاصاً بيتزا من فندق بورت او برنس، وأكواب من عصير التفاح، وكعكة كبيرة مستطيلة مغطاة بالشوكولا، وبعد العشاء نشعل الشرارات واحدة لكل طفل ونغرسها في التراب قُرب جدارنا ونتمنى أمنية، تبدأ سنتنا الجديدة رسمياً بانطفاء آخر شرارة حتى وإن لم تتجاوز الساعة الثامنة والنصف.

"سنة جديدة سعيدة يا تشيكا" قلتها وأنا راكع جنب تشيكا جيون التي انقضى على وجودها معنا ستة أشهر، "هل تستطيعين قول سنة سعيدة جديدة؟"

كان لديها صف كامل من الأسنان اللبنية، السنان الأمامية تتلامس.

قالت "ثنة جديدة ثعيدة"

"هل تعلمين، غداً ديسمبر، يعني أنَّ عيد ميلادك اقترب وسترتدين تاج عيد الميلاد."

اتسعت عيناها.

سألتْ "متى عيد ميلادي؟"

بعد تسعة أيام.

"كم يكون عمري؟"

أربعة.

فكرتْ في الأمر وعددتُ على أصابعي لأريها. عندما وصلتُ لأربعة نقرتُ على خدها الناعم وقلت "بوينك" اندفعتْ نحوي في احتضان بهيج. رغم أني لم أدري أكان ذاك الإحتضان لي أم لخبر أنها ستصبح أكبر قريباً.

[14] نشيد الوداع نشيد عالمي أسكوتلندي من تأليف الشاعر الاسكوتلندي الشهير روبرت برنز.

نحن

"سيد ميتش؟"

همم؟

"ماذا حدث بعدها؟"

همم؟

"في المستشفى؟"

ادركت أنّي سرحتُ قليلاً وأنا أحدق في شجرة سيكويا الفجر، التي تكون أشواكها غليظة صفراء في هذه الشهور من فصل الصيف، إنها الشجرة الصفراء الوحيدة في حديقتنا الخلفية، وكنتُ أحاول تذكر هل نحن زرعناها أم أنَّها كانت موجودة عندما اشترينا المنزل قبل خمس وعشرين سنة.

"لاااااا يهم" قالت تشيكا ملوحة بيدها.

قلت لها لا لاعليك، أنتِ سألتِ وعلي إخبارك، كل مافي الأمر أنّي لا أحب هذا الجزء من القصة.

"لماذا؟"

لأنه يحمل أخباراً سيئة.

"كلا"

ليس فيه أخبار سيئة؟

هزت رأسها بالنفي.

كيف عرفت ذلك؟ لم أخبرها قط بما جرى عندما دخلنا أنا وجانين غرفة استشارة صغيرة أيام قليلة بعد الجراحة، أيُّ انسان مرَّ بتلك اللحظة التي تعرف فيها عن شيئ فظيع كنت تجهله، سيؤكد أن تلك اللحظة منعطف في الحياة بما تعنيه الكلمة من معنى، أنَّ خيارك التالي سيكون حَرِجاً، لأن التشخيص الواحد له عدة وجوه فإما أن يكون بلوى، أو تحدٍ، أو تسليم، أو اختبار من الله.

كُنَّا متفائلين أنا وجانين ذاك الصباح، فبناءً على تشخيص الأطباء الماضي، فإنَّ بالإمكان السيطرة على الكتلة الموجودة في دماغ تشيكا، لم تكن واضحة في المسح، ولم تكن العينات المُجمدة التي أزالوها في الجراحة مقلقة جداً، كُنَّا نأمل أن يكون ورماً من الدرجة الأولى، أو من الدرجة الثانية في أسوء الأحوال والذي قد يسلتزم علاجاً إشعاعياً ومراقبة على المدى الطويل.

عِوضاً عن ذلك، جاء الطبيب جارتون لغرفة الإستشارات تلك، ثم جلس، وقال بنبرة صوت هادئة لكنها مباشرة أن الوضع كان سيئاً أكثر مما كانوا يظنون، فتشيكا مصابة بما يسمى الورم الدبقي الجسري المنتشر داخلي المنشأ، أو DIPG ، وعندما سألتُه عن درجة هذا الورم أهو من الدرجة الأولى أم الثانية، قال لي أنه ورم من الدرجة الرابعة.

الرابعة؟

بدأ بطرح خيارات، تتضمن العلاج الإشعاعي وعلاجات تجريبية، لكن كل ماسمعته كان "الرابعة"، الرابعة؟ شعرتُ أنني سأسقط رغم أني كنتُ جالساً، الرابعة؟ ظللتُ أستمع لعله يقول أنهم سيعاودون المحاولة وسيستأصلون هذا الوحش كاملاً، لكن هيهات، فإنهم لو فعلوا ذلك لما بقي شيء من دماغ تشيكا لتحيا به.

الرابعة؟

قال الطبيب جارتون: "إعذراني على هذه الأخبار"، ثم شاركنا بعض الحقائق المشؤومة عن هذا الورم: يصاب بهذا الورم حوالي ثلاثمائة حالة فقط كل سنة في الولايات المتحدة، ويهاجم عادة الأطفال بعمر تشيكا والذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة والتاسعة؛ يضعفهم بسرعة -مشيتهم، حركتهم، بلعهم-. ومعدل النجاة على المدى الطويل كان صفراً، تلك كانت القاضية.

كُنَّا مصعوقين، وبينما كان الطبيب جارتون يخبرنا بالخيارات تذكرتُ أني أغلقتُ فمي الفاغر بتؤدة، في هذه اللحظة كان هناك شيء آخر أشد إيلاماً من أن يتحطم بيانو على رأسينا؛ يفترض بنا أن نتخذ قراراً، لهذا السبب كان يخبرنا بكل تلك المعلومات الرهيبة.

قرار؟ يخص حياة تشيكا؟ لكنها لم تجيء إلى أميركا إلا منذ أسبوعين مضت، لقد ابتعنا لها حذاءً، وسألناها أتحب البيض المخفوق المقلي، كان من المفترض أن تبقى بضعة شهور ثم تعود للميتم وقد شفيت بفضل طبنا الأميركي العجيب، قرار يخص حياتها؟

تبادلنا أنا وجانين النظرات.

قلتُ مُتمتماً، في محاولة لإلقاء العبء على الطبيب: "ماذا لو كانت طفلتك؟"

قال الطبيب جارتون متنهداً: "على الأرجح كنتُ سأعيدها إلى هاييتي، لتستمتع بالصيف، وتكون مع أصدقائها، إلى أن ..."

يكمن كل شيء رهيب خلف "إلى أن".

بإمكاني رؤية جانين تذرف الدموع. أحسست داخلي يتفجر.

وقبل أن أفقد شجاعتي تفوهت بسؤال.

"كم من الوقت لديها؟"

قال الطبيب بهدوء: " أربعة أشهر" ثم أضاف "ربما خمسة"، أظنه قال خمسة ليخفف من صدمة الرقم الأول "أربعة".

أربعة. مجدداً، أربعة. قال ربما يطيل العلاج الإشعاعي هذه المدة وربما يضاعفها، رغم أن جودة حياتها ستتأثر وهو لا يحبذ هذ الخيار لأنها ستظل هنا ولن تعود للمنزل ولن يتغير شيئ.

أميلُ في العادة لسماع نصائح الأطباء فأنا أحترم علِمهم وخِبرتهم. لكنَّه عندما قال جودة الحياة حركتْ كلماته شيئاً داخلي وجدتُ نفسي أدافع عنها كمدير استُهين بقدرات ملاكمه. فنحن هنا في أميركا في مستشفى استثنائي يقع في مدينة متطورة، فجودة الحياة التي عرفناها نحن مختلفة تماماً عن تلك التي عرفتها الأرض التي ولدتْ فيها تشيكا، الأرض التي تحمل تشيكا قوتها في دمائها. عندما أتذكر أنها في أيامها الأولى في هذه الحياة نجت من زلزال، ونامت في حقول قصب السكر، وتحملت موت أمها التي كانت بالكاد تعرفها، وتنقلت بين بيوت مختلفة، بدت لي فكرة إعادتها لهاييتي لتنتظر الموت هناك فكرة قاسية، فقلتُ أخيراً وأنا أنظر لجانين التي اتفقت معي"إنها مقاتلة وإن قاتلت فسنقاتل معها".

انحنى الطبيب جارتون في كرسيه إلى الوراء ثم قال" كما تشاؤون".

ثم جلسنا جميعنا هناك نتأمل لدقائق خطة معركة غير مرئية.

"مرحى!"

صفقت تشيكا بيديها.

فقلتُ: ما الأمر؟

أدركتُ أني كنتُ أروي بصوت عالي تلك القصة التي لم أود إخبارها إياها.

قالت مجدداً "مرحى!"

لماذا تصفقين؟ ألأني أخبرتك القصة؟

لم تجب.

لأننا اخترنا القتال؟

لم تجب..

لماذا يا تشيكا؟

وقفتْ وأخذتْ يدي وجمعتهما ثم قالت "صفق لنا يا سيد ميتش!"

أدرتُ كفي حيراناً.

واختفت مجدداً.

الفصل الثالث

أنا

قبل عشرون سنة من مجيء تشيكا للعيش معنا، بدأتُ رحلة حياتي. لم تكن المسافة طويلة، أقل من سبعمائة ميل بالطائرة وخمسون دقيقة في مشوار سيارة أجرة أستقلها لضاحية غرب نيوتن. كانت رحلتي لزيارة أستاذ جامعي كان أسمه موري شوارتز.

كان موري يحتضر، كان مصاباً بالتصلب الجانبي الضموري،ALS اضطراب التحلل العصبي التدريجي. والذي يُعرف أيضاً بمرض لو جيهريج، نسبة إلى لاعب البيسبول الشهير الثلاثيني، الذي أجبره مرضه على التقاعد والذي قال في وداعيته في ملعب يانكي "إني أرى نفسي في هذا اليوم أكثر الرجال حظاً على الأرض".

كان موري سيقول لي "حسناً، أنا لم أقل ذاك".

في ذاك الوقت كنتُ في السابعة والثلاثين من عمري وكنتُ أعمل في خمس وظائف: الصحافة، التلفاز، الراديو، الكتب، مستقل.

لم أرفض أي فرصة عُرضت علي خشية ألاَّ يعرض علي مثلها مجدداً. لم أعرف عن مرض موري إلا من مقابلة تلفزيونية أجراها في قناة أي بي سيABC لبرنامج نايت لاين Nightline. سافر مقدم البرنامج تيد كوبل من العاصمة واشنطن للقاء الأستاذ الأسطوري المحتضر، الذي كان يُعَلِّم زُواره، غالباً بابتسامة، مالذي كشفه له الموت القريب عن الحياة. أُعجب كوبل بموقف موري فرغم أنه لم يعد يستطيع المشي، أو ارتداء ثيابه، أو الإستحمام بمفرده إلا أن برنامج Nightline أنتج عنه جزءاً كاملاً وقد ينتج جزئين آخرين. لقد شاهدتُ الجزء الأول وكان مذهلاً. عندما كان موري معافىً كان أستاذاً في جامعة براندیز لقد كان أستاذي المفضل. كان يُدرس علم الاجتماع. كنتُ أحضر جميع الدروس التي كان يقدمها. لقد شعرتُ أنه خال أو عم أكثر منه مدرساً. كنا نمشي سوياً حول الحرم الجامعي ونتناول وجبات الغداء سوياً أيضاً. كان موري ذا أفكار وهاجة لاتنضب، حتى وفمه مليء بالأكل، كان يتحدث فتتطاير قطع من سلطة البيض باتجاهي. كتبتُ مرة أني طوال معرفتي به كانت لدي حاجتان ملحتان: (أن أحتضنه، وأن أناوله منديلاً).

قدمتُ له في يوم التخرج هدية، حقيبة عليها حروف أسمه الأولى، حينها ترقرت عيناه بالدموع واحتضنني وقال (أنت واحد من الصالحين عدني أنك ستبقى على تواصل معي).

ووعدته أني سأفعل.

ومرت ست عشرة سنة لم أزره فيها، ولم أتواصل معه لا برسالة ولا باتصال. لم يكن لدي عذر سوى العذر المبتذل، لقد كنتُ "مشغولاً" بكل معنى مبتذل كانت تلك الكلمة تحمله. كنتُ منشغلاً بأشياء أهم، كما كنتُ أظن، فأنا صحفي مطلوب دائماً، ارتقي درجات النجاح، نجاح وراء نجاح.

و عند رؤيتي لموري في برنامج Nightline بعد كل تلك السنين، تلى صدمتي لرؤيته شعور آخر أكلني. الذنب. أو ربما كان الخزي. شعور أني لم أعد واحداً من الصالحين. اتصلتُ به على الفور. ورتبتُ خططاً لرؤيته. كان من المفترض أن تكون زيارة واحدة. لكن موري في لقاءنا الأول بعد مدة، عرف ما بأعماقي وإن كان ضعيفاً ومقعداً إلا أنه قد فحصني بدقة وبراعة عندما قال: (حزن سببه الموت خير من حزن سببه العيش تعيساً). ولهذا عدتُ الثلاثاء الذي تلى زيارتي تلك والثلاثاء الذي تلاه والذي تلاه وكل الثلاثاءات التي تبقت من حياته، وسوياً أخذنا "درساً" أخيراً عن الأمور أكثر الأمور أهمية والتي تتجلى لنا عند احتضارنا، لقد أعادني إلى سابق عهدي، ومع مرور الوقت دونتُ ما جرى في هذه الزيارات في مخطوطات كتبتها لأدفع تكاليف علاجه، أسميتها ثلاثاءات مع موري، كتاب لقي رواجاً لم يخطر على بالي. ومع مرور السنين أصبحت خريجاً مساعداً في صف موري الأخير.

لقد غيرتني هذه الزيارات جداً، تغيرت محادثاتي مع الغرباء كنتُ في السابق إن صادفتُ غريباً فإن أحاديثنا ستكون عمن سيفوز بالسوبر بول أما الآن فقد صارت "ماتت أمي مؤخراً وكان قراءة كتابك آخر شيء فعلناه قبل موتها، هل تسمح لي أن أحدثك عنها؟" لقد علم أستاذي العجوز أن رأسي المتصلب يحتاج إلى طرقات يومية ليصل إلى مركز اللين والحكمة، كان كتابي ثلاثاءات مع موري المطرقة، كان التيار الذي ردني لبحر موري، اقتبست كلامه، تذكرته، أجبت على أسئلة متعلقة به إلى أن تطبعتُ بطبعه.

طُلِب مني التحدث في أحداث دار الرعاية الطبية والمؤتمرات الطبية والجامعات، و بدأتُ بزيارة ونصح المرضى الذين شُخِّصوا حديثاً بالتصلب الجانبي الضموري، وشاركتُ من لا يُرجى شفائه تأملات موري حول شهوره الأخيرة فقد قال أنه كان فيها أكثر حيوية؛ لقد شبه أيامه تلك بالألوان الزاهية لورقة تموت، وشاركتُ المعافى شعار موري "تظاهر أن هناك عصفور على كتفك تسأله كل يوم؛ هل هذا يومي الأخير؟ ثم عش كل يوم كأنه يومك الأخير".

ربما تظن أن رحلة حياتي التي حدثت قبل عشرين سنة ماهي إلا تدبير من تدابير الله المحكمة لتعينني على التعامل مع تشخيص تشيكا، لتُسلِّحني بفلسفة متينة، وقلب فولاذي لتَحَّمل هذه الأخبار المروعة، لكن شتَّان بين رجل عجوز يتأمل ماضيه وطفلة صغيرة تتأمل في مستقبلها، وقد تبين لي أني مقبل على رحلة أخرى.

نحن

تشيكا؟ ناديتها

لستُ أراها لكني أسمع ضحكة مكتومة.

نهضتُ من على كرسيي، وجلتُ في الغرفة. صرنا في بداية سبتمبر، لقد مضى أكثر من شهر على زيارتها الأخيرة.

قلتُ وأنا أجول الغرفة أين تشيكا؟

كانت هذه لعبة أعتدنا لعبها. العثورعلى تشيكا. كانت تختبئ عند سماعها الباب الأمامي يُفتح إما تحت بطانية أو تحت طاولة المطبخ وعليك حينها أن تصيح أين تشيكا؟ لقد أضعناها! أين هي؟ وكانت تظل مختبئة إلى أن تسمع الذُعر في صوتك عندها تخرج من مخبأها وتصيح بانجليزيتها البسيطة (here is me!) (هاهي أنا!) ثم تنفجر ضاحكة حانية كتفيها للأمام بهستيرية. لم تر عيني قط طفلاً سعيداً عُثر عليه مثلها.

ويبدو لي أننا الآن نلعب هذه اللعبة.

ناديتُ أين تشيكا؟ أين اختفت؟ رأيتُ بطانية مُدت على سرير فوتون[15] أنام عليه عندما أكتب في الليل. جذبتُ البطانية، قلتُ بصوت لعوب هل هي مختبئة تحت ..... البطانية؟

أجابت من الجهة الأخرى للغرفة لاااااا.

التفتُ فإذا بها عند مكتبي تقرأ ماكُتِب في الكراسة الصفراء.

لقد انتهت اللعبة إذاً.

سألتْ "مالذي تعنيه بالوقت يتغير؟"

قلتْ إنه ثاني الدروس التي علمتني، ثاني الدروس التي قلتِ لي أن أكتب قائمة بها.

سحبتْ كرسيي.

"إكتبه."

ثم غطستْ في الكرسي وضحكت.

أنتِ تعلمين أنَّ علي الجلوس على الكرسي لأكتب.

---

[15] فراش أو سرير أرضي ياباني

قالتْ "نعم أعلم" ثم ضحكت مجدداً.

أدارت الكرسي جيئة وذهاباً "وررررر! وررررر!" فجأة كانت البطانية التي فوق الفوتون في يدها، فغطت بها رأسها، وصاحت "أين تشيكا؟" تنهدت.

الدرس الثاني

الوقت يتغير

هل تذكرين أول صباحٍ استيقظتِ في منزلنا؟

كنتُ في مكتبي بالأسفل لأني اعتدتُ الكتابة صباحاً، رن هاتفي، كانت السيدة جانين اتصلت من غرفة النوم وفي صوت أجش مليء بالنوم قالت لي "سيد ميتش تشيكا جائعة تريد فطوراً هلّا ساعدتها؟"

صعدتُ للأعلى وأخذتكِ للمطبخ، وجدنا فيه بيضاً وزبدة وبعض الجبن وطماطم، أريتكِ المقلاة والموقد فوقفتِ على أصابع قدميك وساعدتني بتحريك ملعقة المزج، سكبتُ العصير ثم تلينا صلواتنا.

تأملتكِ وأنتِ تأكلين.

وتأكلين المزيد.

إن وصفتكِ بالتي تأكل بتمهل فهذا وصف غير دقيق، كنتِ تمضغين أكلك ثم تنظرين للنافذة ثم تضعين الشوكة على الطاولة تتثاءبين ثم تلتقطين شوكتك مجدداً تتأرجحين للأمام والخلف على إيقاع داخلي، لقد استغرقتِ ساعة تقريباً، ولو أنّي كنتُ ممن يتناولون الفطور لتناولته بنفس الوتيرة لكني لستُ منهم.

في الصباح التالي عندما سمعتُ وقع خطواتك على الدرج في السابعة صباحاً نهضتُ من مكتبي ولقيتكِ عند الباب وحملتكِ عندما قلتِ لي "سيد ميتش إني جائعة!" وذهبنا للمطبخ.

بإمكان الطفل أن يزيد أعباءك وأن يحررك منها في آن واحد.

لم تعد حياتي كسابق عهدها.

إنَّ الوقتَ يتغير، وقتكْ لن يكون ملكاً لك بعد مجيء فرد صغير، وسيؤكد لك الآباء كلامي، بالنسبة لي وللسيدة جانين فإن التغيير الذي حصل كان صدمة لنا لأنه حدث في وقت متأخر من حياتنا بعد سبعة وعشرين عاماً من الوحدة.

عندما قررنا يا تشيكا أنكِ لن تعودي إلى هاييتي قبل أن نجد طريقة لنهزم البلوى التي ألمت بك، أخذناك للمنزل وبرفقتكِ حيوانين محشوين، وضمادة على عنقك، وحقيبة مليئة بأمل ساذج، لم نستوعب بعد حجم هذا الالتزام، فنحن لم نُدخل إلى حياتنا طفلة فحسب بل طفلة وتحدٍ -بحث غير منقطع عن علاج لمرض لم نسمع به إلا منذ أسبوعين-.

كان لك وتيرة وكان لمرضكِ وتيرة ومنذ تلك اللحظة تغير كل ما عرفناه عن كيفية إمضاء الوقت، لقد انتهجنا كيفية جديدة ثمينة.

هل تعرفين كم عمري يا تشيكا؟

كنتِ تقولين بعد تخمين " ثلاثون" وعندما أقول لا تخمنين مجدداً "مائة!" لابد أن العمر النسبي غامض بالنسبة للأطفال فهم لايعرفون من النسب سوى النصف وعندما تسألهم عن أعمارهم يجيبون "عمري خمس سنين ونصف!" لقد كُنَّا في آواخر خمسيناتنا عندما جئتِ للعيش معنا. صغاراً بما يكفي لنحافظ على روتيننا، وكباراً بما يكفي ليزعجنا تغيره.

وكالمتوقع فقد تأقلمت السيدة جانين على هذا التغير أسرع مني، كأنها كانت بشكل أو بآخر تستعد له.

أما بالنسبة لي فقد كنتُ منذ شبابي متخوفاً من الأبوة، لقد لاحظت كيف لوجود طفل أن يشغل كل وقتك، أقلقني أني قد لا يمكنني قضاء ما يكفي من الوقت مع طفلي فينتهي بي الأمر أن أكون أباً سيئاً، وبصراحة خفت من أن تعيقني الأبوة عن النجاح في عملي، لقد كنت أحقق نجاحات باهرة وأردتُ أن يبقى الحال على ماهو، لم أحذركِ من الطموح يوماً يا تشيكا، لكني تعلمتُ من تجربتي أن الطموح سراب لا نستطيع بلوغه وسينتهي بنا العمر قبل أن نروي عطشنا.

كانت السيدة جانين عندما تزوجنا تعرف كل هذا لكنها تأملت فيَّ الطيبة والكرم، وفي سنيننا الأولى معاً أردتُ أن أكون عند حسن ظنها، لكن بُخلي بوقتي قد أصبح عادة عندي. أتذكر مرة حينما كُنَّا نحاول الإنجاب أنّي اقترحت عليها توظيف جليسة أطفال لتساعدنا في الاعتناء بهم، فاعترضت السيدة جانين، في الواقع أغضبتها الفكرة وهي التي نادراً ماتغضب، تعجبتُ حينها من ردة فعلها لماذا ترفض المساعدة، لم أنتبه إلى أني جرحتها عندما خططتُ للبقاء بعيداً عن طفلنا الذي لم نرزق به بعد، عندما أعود بذاكرتي لتلك الأيام أُدرك كم كنتُ أحمقاً من عدة نواحي.

ثم جئتِ أنتِ بطباعكِ المتأنية، كان عمركِ خمس سنواتٍ فقط لكنها مليئة بالفضول كأنما كانت حياتكِ صفحات كدست لم تُقلَّب بعد، فكنتِ تصرخين عند رؤيتكِ لسناجب تتسلق شجرة "سناجب!" ثم تسألين أين يذهبون وهل يستطيعون رؤيتك، كان لديك أسئلة عن الكتب والطعام والغيوم والملائكة، عندما كنا نُلبسكِ كنتِ تتفحصين جميع ما لديك من ثياب قبل أن تختاري واحداً، فأقترح لك وقد نفذ صبري:

الجوارب الحمراء رائعة.

"أظن أني أريد ارتداء الخضراء."

كذلك الخضراء رائعة.

"انتظر انتظر أريد ارتداء الجوارب الزرقاء."

لم يكن لدينا خيار سوى أن نتباطئ لوتيرتك، أن ننحني لمستوى نظرك، غالباً ما كنتُ أجدكِ جالسة على الأرض عند نافذتنا الخلفية تتأملين الحديقة، فتذكرت موري أستاذي القديم عندما كان يشير إلى النافذة ويخبرني أنه يقدرها أكثر مما أقدرها أنا لأنها أصبحت نافذته على العالم بسبب مرضه بينما أعدها أنا مجرد لوح زجاجي.

لقد قدرتِ النافذة أيضاً يا تشيكا وكل ماكان وراءها من الأشياء العجيبة أكثر مما قدرتها، كان علي مجارة دهشتك، أن أدوس على مكابح حياتي، أن أعتذر عن وجبات العشاء لئلا نتأخر على موعد نومك، أن أتأخر عن العمل لأن هناك أماكن أضطر لأخذك إليها، أن أعتذر للرؤساء والمحررين عن إنتاجي المتباطئ.

لكني فعلت وكذلك السيدة جانين، ووجدنا أنفسنا نتأملك بافتتان متزايد، كنا نلكز بعضنا إن رأيناك تصفقين لفيلم أو ترقصين حول الطاولة وأنت لا تعلمين أننا نراقبك، وإن غفوتِ بين يدي أظل أحملك طويلاً بينما تربتُ السيدة جانين على شعرك، لا أعلم يا تشيكا كم أمضينا من الساعات ونحن نتأملك فقط، ولكنها كثيرة وغالية.

قبل مجيئكِ إلينا كُنَّا نمضي وقتنا في مشاهدة التلفاز على السرير وغالباً ما نَغُط في النوم والتلفاز ما يزال مشتغلاً، وبمجرد وصولكِ صرنا نطفئ الأنوار ونمشي حولك في الظلام على أطراف أصابعنا، كنتِ غالباً ما توقظيننا في منتصف الليل.

"سيد ميييتش؟"

"همم؟"

"أحتاج أن أذهب للحمام."

كنتُ آخذكِ للحمام وأنتظر عند الباب وأنا أتثاءب، أسمع إندفاع ماء المرحاض، وأساعدك في غسل يديكِ، ومن ثم أعيدكِ إلى سريرك اللطيف، المنخفض الذي كنتِ تهوين فوقه.

وحين أعود للسرير كانت السيدة جانين تهمس "هل هي بخير؟"

فأتمتم وأنا أغمضُ عيني "إنها بخير، إنها على مايرام."

إنَّ أغلى ما قد تقدمينه لشخص يا تشيكا هو وقتكِ، لأنكِ لن تستطيعي إستعادته، وعندما لا تفكرين في إستعادته فإنكِ تقدمينه بحب.

تعلمتُ هذا منكِ.

بمناسبة الحديث عن سريرك، قد يبدو الأمر ظريفاً ولكنّا لم نعلم أين نضعك عندما جئتِ إلينا، فنحن لم يكن لدينا متسع من الوقت لنخطط، فمنزلنا الذي عشنا فيه ما يقارب خمسة وعشرون عاماً لم يتغير مثلنا، كانت غرفة نوم الضيوف

في الدور السفلي وكنتِ صغيرة جداً فلم نستطع إبقاءكِ بعيدة عنا إلى هذا الحد، ولكنكِ أيضاً كنتِ كبيرة فلم نستطع أن نضعكِ في مهد.

وفي نهاية المطاف اشترينا مرتبة هوائية بالحجم الكامل، وغطيناها بملاءات فروزن[16] وبطانيات ملونة، ووضعناها أسفل سريرنا، تعثرتُ بها أول ليلة قضيتِها معنا، عندما استيقظتُ لأذهب للحمام، نسيتُ أنها كانت هناك.

لكني مع مرور الأيام اعتدتُ وجودها، كنتُ أُذكر نفسي في الظلام أن أمشي أربع خطوات إضافية قبل أن انعطف يساراً وأمشي في الإتجاه الأخر عندما أعود للسرير، كما أنني اعتدت أن أنحني فوقك في الذهاب والإياب لأتأمل جسمك الصغير ممدداً بين الوسائد ونَفَسُكِ الهادئ المختلف عن نفسي.

هل تذكرين عندما عدتُ إلى المنزل يوماً وكنتِ والسيدة جانين تضحكان بِمَكْر؟ قالت السيدة جانين " تشيكا كيف يشخر السيد ميتش أثناء نومه؟" فشخرتِ شخيراً عالياً كما لو كنتِ أسداً يسعلُ كرة من الفرو؟ فابتسمتُ ببلاهة وقلتْ عظيم، الآن هناك أذنان أخريان تتجسسان علي."

حسناً، بالفعل كان هناك أذنان أخريان وعينان أخريان ويدان ورجلان، وسرير آخر كان علينا الإلتفاف حوله، كان هناك شيء آخر تغير بالإضافة للوقت:

المساحة.

قبل مجيئك يا تشيكا، كنا اثنين والآن صرنا ثلاثة، في السيارة كُنَّا اثنين في المقاعد الأمامية والآن تجلسين أنتِ والسيدة جانين في المقاعد الخلفية وأنا كالسائق خلف المقود، وطاولة الطعام بعد أن كانت بمقعدين أصبحت بأربعة مقاعد وأصبحنا نقرر: أيُّنا يجلس بجانبك ويساعدك في تقطيع طعامك؟ توسعت حياتنا بكل الطرق وأعتدنا الأمر بسرعة.

فجأة، صرنا ثلاثة، ثلاثة مقاعد لمشاهدة فيلم، وثلاثة مقاعد في محل الأحذية، أو غرفة الانتظار، أو مكتب طبيب الأسنان.

وثلاثة مقاعد في عيادة للإشعاع Beaumont Hospital radiation clinic في رويال أوك، ميشيغان، في صبيحة يوم أثنين عندما جاءت ممرضة وسألتكِ إن كنتِ مستعدة لإرتداء "خوذة خاصة"، فهززتِ كتفيكِ وقلتِ حسناً، وقفنا ومشينا سوياً عبر الممر ممسكين أيدي بعضنا، واحد، أثنان، ثلاثة إلى غمار المعركة.

---

[16] فيلم رسوم متحركة

حل شهر يوليو من عام 2015 كان الجو حاراً جداً، في أول رحلة لي إلى البعثة بعد أن غادرتها تشيكا، كانت الطفلة الوحيدة التي غادرت البعثة إلى أميركا، وكنتُ أبعد عن البوابة ثلاثين ثانية عندما التف الأطفال حولي وبدأو بسؤالي.

"هل تعيش تشيكا معك؟"

"هل تنام تشيكا في منزلك؟"

" هل تملك تشيكا غرفة خاصة؟"

"هل تملك تشيكا كلباً؟"

سألوني متى ستعود تشيكا، وأخبروني أن سريرها مازال موجوداً وأنه لا أحد ينام فوقه.

في اليوم التالي، علقتُ رسمة رسمتها تشيكا في مكتب المدرسة، كتبت فيها "مرحباً يا رفاق، إني ألعب وأقضي وقتاً ممتعاً، مع حبي تشيكا. ملاحظة، اشتقت لكم."

حدق الصغار فيها، تبدو تشيكا مختلفة في نظرهم الآن، خارج أسوار الميتم، تحت رعايتي، سألتني إحدى الفتيات إن كانت تستطيع الذهاب إلى أميركا أيضاً ، فقلت لها لا ليس الآن.

قالت: "لكن لماذا؟" "أنا أيضاً ليس عندي أم."

نحن

"سيد ميتش؟"

همم؟

"لماذا تحتفظ بهذه؟"

فتشت تشيكا بين دباسة، أكواب قهوة، مطاطات، وعلبة مناديل (يبدو مكتبي كسلة تخفيضات في مستودع للمكاتب) وأمسكتْ بإطار صورة بداخله إستبيان مدرسي من هاييتي عَبَأتْهُ قبل مجيئها للولايات المتحدة بأسبوعين فقط.

كتبتْ عند الإسم "خمسة" وعند العمر "تشيكا".

وفي الأسفل طُلب منها إكمال هذه الجملة:

"عندما أكبر أود أن أصبح _____".

كتبتْ كلمة واحدة.

"كبيرة".

سألتْ مجدداً "لماذا تحتفظ بها؟"

كيف أجيب؟ لأنها أضحكتنا ذاك الوقت؟ أم لأنها أبكتنا لاحقاً؟ أم لأني أحدق فيها بحزن لماذا يا رب لم تحقق لها طلبها رغم بساطته؟

عندما أكبر أود أن أصبح . . . كبيرة.

لا أعلم يا تشيكا، بعض الأشياء نحتفظ بها بلا سبب.

" لقد كبرتْ."

متى؟

أشاحت بناظرها.

"ألا تذكر؟"

ملأت خديها بالهواء كأنها تنفخ بالوناً.

اسندت ظهري إلى كرسيي.

وقلت، أني أذكر.

***

الديكساميثازون عبارة عن كورتيكوستيرويد[17] يستخدم لتخفيف الإلتهاب، بدأت تشيكا بأخذه قبل العلاج الإشعاعي، حبوب صغيرة تتناولها مع عصير التفاح، ولأني صحفي رياضي، فقد غطيت رياضيين استخدموا المنشطات (الستيرويدات) ليضاعفوا أحجامهم، وعندما سمعتُ الأطباء يتحدثون عن هذا العقار مستخدمين اسم ديك (Dec) اختصاراً لإسمه التجاري ديكادرون (Decadron) في سياقات مثل ("كم الجرعة التي تأخذها الطفلة من ديك؟") ("باستطاعتنا زيادة الجرعة")، بدا الأمر تقريباً كما في الرياضة، يصف لاعبو الكرة الذين يستخدمون المنشطات العملية بمضاعفة الحجم، وبالطبع في وقت قصير تضاعف حجم تشيكا ولكن ليس كماهو الحال عند الرياضيين.

ضاعفت المنشطات كل شيء في تشيكا عدا الغشاء القريب من الورم فإنه قد تقلص، تضاعفت شهيتها، تحولت وجبة الفطور من موزة واحدة إلى ثلاث بيضات، حبوب، عنب، وشريحتي خبز محمص بزبدة اللوز، وعلى العشاء فإن باستطاعتها تناول نفس القدر الذي أتناوله، حرصنا ألا نشبع شهيتها المتضاعفة بالأطعمة الضارة، لكن جوعها لم يكن حقيقياً، كانت تتناول قطعتين من السلمون، كرنب صغير، سلطة سيزر، وإن رأتني أتناول شيئاً فإن صوتها يعلو"سيد ميتش، ما هذاااااا؟" فأرد عليها " شطيرة ديك رومي"، فتشيح بناظرها وتتمتم "أتمنى لو أنَّ لدي شطيرة ديك رومي".

غيرت المنشطات منظر تشيكا في أقل من شهرين، أصبح لديها ذقن مزدوج، وانتفخ خداها، لو رأيتها لحسبت أنها تُخزن فيهما جوزاً، تعلمتُ مصطلحاً طبياً لحالتها الوجه البدري أو (moon facies)، مصطلح قد يصيح به طفل لئيم، وأقلقني ماقد يقوله الأطفال الآخرون لتشيكا، غارت ذراعاها ورجلاها، وبرز بطنها بشكل ملحوظ، أصبح وزنها ثلاثة وثلاثين كيلوغراماً بعد أن كان واحد وعشرون كيلوغراماً.

لكن أيَّاً من هذا لم يُقلِّص بهجتها، فابتسامتها مازالت مشرقة ولكن بدلاً من أن تشع على وجهها فقد غاصت بين خديها، ما زال شق وجهها الأيسر -فمها وعينها اليسرى- مرتخياً، ومازالت تعرج برجلها اليسرى، لكن الأطباء قالوا أنَّ كل هذا قد يزول إن كان العلاج الأشعاعي فعالاً.

تعلمتُ أنَّه بالرغم من عِظم تعقيد الدماغ البشري إلا أن ورماً كورم DIPG باستطاعته بالضغط على منطقة معينة في فص معين فقط، أن يتسبب في ارتخاء عينك والتواء قدميك، وإضعاف نطقك، وإن أزلتَ الضغط فستختفي الأعراض، كان الأمر ميكانيكياً تقريباً، كأن باستطاعتك أن تصيح في الورم " ابتعد!" وسيعود كل شيء إلى سابق عهده.

---

[17] هرمونات منشطة

كان ذاك دور العلاج الإشعاعي، خط إشعاعي من جسيمات دون ذرية، موجهة بدقة، قوة تدميرها كقوة تدمير قنبلة، كانت تشيكا صباح كل خمسة أيام في الأسبوع تدخل جهازاً ضخماً، رأسها مثبت بخوذة، وعيناها لا خيار لهما سوى التحديق في الأسطوانة، كُنَّ الممرضات اللواتي يهيئنها لطيفات على الدوام، " أنتِ مذهلة يا تشيكا! أنتِ نجمة روك!"، لكني دائماً ما كنتُ اتساءل عما تشعر به نجمة الروك عندما يغادرن الممرضات الغرفة قبل إشغال الجهاز.

إجمالاً فقد قامت بذلك لمدة ستة أسابيع، حاولنا إبتكار أمور تجعل الجلسات أكثر إمتاعاً، كانت تسجل دخولها بنفسها وتختار موسيقى لتسمعها أثناء الجلسة، لكن جسمها دفع الثمن، اختفى الشعر خلف أذنها اليمنى لأن الإشعاع يقتل الخلايا السليمة وبالتحديد الخلايا سريعة النمو كخلايا الشعر مع الخلايا السرطانية، في بعض الليالي كانت تشيكا تتقلب في سريرها وتصيح بالكريولية وقد تصببت عرقاً "طبيب! طبيب!" "!Doktè !Doktè"

لكن مع مرور الوقت بدأ الورم يتقلص بشكل ملحوظ، أكثر مما أمله الأطباء، أرانا إختصاصي الأورام المشرف على علاجها الإشعاعي الطبيب بيتر تشين صوراً على شاشات حواسيب عملاقة وصور أشعة رنين مغناطيسي؛ أتريان هذا؟ هذا هو الورم عندما جاءت للمستشفى أول مرة، الآن انظرا. في بداية الخريف عندما أخذتُ تشيكا لمطحنة التفاح لتطعم البط وتتذوق فطيرة تفاح، كان ورمها قد تقلص بنسبة خمسة وعشرين بالمئة.

بنسبة خمسة وعشرين؟

رد الطبيب تشين"ربما أكثر، ثلاثون."

غمرتنا القوة، سددت تشيكا للورم ضربة ثلاثية قاسية في أول معركة لها ضده، قالت لي جانين" ستتغلب عليه، ما المانع من أن تكون أول طفلة تغلبه؟"

مع مرور الوقت حصلت تشيكا على ملابس بعضها ابتعناها لها، وبعضها أحضرها لها بعض أصدقاءنا، تحب تشيكا ارتداء الثياب، وبالتحديد الثياب كثيرة الزينة، كانت ترتدي حذاء جانين ذو الكعب العالي وتتمشى في الأرجاء، وكانت أيضاً تتزين بعدة قلائد وقبعات في الوقت نفسه.

قالت جانين مازحة: "تحب تشيكا المبالغة في التزين."

كُنَّا نَهُم بالخروج في يوم من الأيام.

فقلتُ لها "انتظري، هناك شيء على وجهك".

فقالت " ماهو؟"

فأخرجتُ منديلاً ومسحت حول شفتيها.

"وجهكِ مبلل قليلاً كيف تبللتِ هكذا؟"

رفعت يديها بتعجب "سيد ميتش! لقد مسحت ملمع شفاهي!"

نحن

انقضى الصيف قبل أن تظهر تشيكا مجدداً، بدأتُ ارتدي السراويل الطويلة بدل القصيرة، ولم أعد أستخدم مروحة السقف في مكتبي، لطالما أحبتْ تشيكا هذا المكتب كثيراً، عندما تعبر الباب كانت ترفع عينيها إلى رف الكتب الطويل، كانت تعلم أن هذا هو المكان الذي أكتب فيه وأنني أحتاج الهدوء عندما أكتب، ربما دخولها للمكتب هو سبب شعورها بالتميز.

عندما وصلتْ هذه المرة ربتتْ على ظهري فكدت أقفز هلعاً، فضحكتْ بهستيرية.

سألتني "ماذا تفعل؟"

أكتب.

"عنِّي؟"

كما أردتِ.

" هممم"

التفتُ إلى البيانو الذي خلفنا.

"فلنعزف شيئاً."

لدي بيانو في مكتبي، لأنني كنتُ موسيقياً عندما كنتُ شاباً، وحتى هذه اللحظة عندما أشعر أنني تهتُ في غابات الكتابة، فإني أعزف لتنتشلني الأنغام من تيهاني، بدأتْ تشيكا بضرب المفاتيح، وعزفتْ أنغام متنافرة كما كانت تفعل تماماً عندما كانت على قيد الحياة.

أعتدتُ أن أوبخها "لا تضربي المفاتيح" إلى أن أخذتُها يوماً ما لزيارة صديق موسيقي يعزف الجاز، والذي أصغى لها بإمعان وهي تضرب المفاتيح، ووقف فوقها وعزف نغمة عالية بيساره وأخرى منخفضة بيمينه، أحتضن عجبها بغطاء من موسيقى، وكانت تلك آخر مرة وبختها فيها.

كل مافي هذا العالم موسيقى إن كانت لديك آذان صاغية، كما جاء في الزبور "صخب بهيج".

جلسنا وعزفنا جلجل الجرس "jingle bells" إنَّ أغاني رأس السنة مرحب بها دائماً، حتى في الصيف، غنيت "مسرعون فوق الثلج، في عربة مكشوفة يجرها حصان واحد ، خلال الحقول نمضي."

صححتني قائلة "عبر الحقول."

عبر الحقول؟

"نعم."

ليست خلال؟

"لا." استمع، وغنت "مسرعون فوق الثلج، وفي عربة مكشوفة يجرها حصان واحد، عبر الحقول نمضي."

بدأتُ أغني معها لكنها وضعت يدها على فمي وأنهت الأغنية " نضحك طول الطريق ها ها ها!"

سألتها وأنا مبتسم هل عليكِ فعل هذا؟

فابتسمت. في معظم المرات التي غنينا فيها كانت تشيكا تغلق فمي بكفها، دلالة واضحة على أنها تريد التفرد بالغناء. كان الأمر يضحكني. ومازال يضحكني.

"سيد ميتش؟ لماذا كتبتَ تلك الكلمات؟"

أية كلمات؟

تزحلقت على المنضدة وذهبت للمكتب. وأشارت على الكراسة الصفراء وبالتحديد على رقم ثلاثة في القائمة.

قالت "هم".

الدرس الثالث

إحساس عجيب

هل تذكرين يا تشيكا عندما أخذناك مرة لعالم ديزني؟ ذهبنا بعد جلسات العلاج الإشعاعي، كنتِ تتعجبين من قلعة الجميلة النائمة التي تُعرض في بداية كل أفلام ديزني، كنتِ تسألين "هل هي حقيقية؟" وكنا نجيبك بنعم، وأنا سنأخذك يوماً ما لرؤيتها. في إحدى الليالي بعد أن وضعناك في سريرك، نظرنا أنا والسيدة جانين لرقعة شعر أعلى رقبتك قد اختفت، كان العرق يتصبب من جبينك، فقلنا لبعضنا "مالذي ننتظره؟".

قمنا بالحجوزات، وأقلعنا إلى كاليفورنيا، كانت رحلتنا في منتصف الأسبوع في أمل أن يكون الزحام خفيفاً، ووصلنا قبل أن يُفتح المنتزه.

أكثر ما أذكره هو أول عمل قمتِ به، دخلنا من الطريق الرئيسي، ومررنا بمحلات تذكارات، كانت الألعاب أمامنا وكنتُ أفكر أيها ستختارين وتصرخين عند رؤيته "هلاَّ ركبنا هذه؟"

لكنك عندما مررنا ببركة صغيرة كان قربها بطة رمادية، والمكوك النجمي "Astro orbiter" على يمينك وجبل الرعد " Thunder Mountain" على يسارك وقلعة الجميلة النائمة أمامك، صحِت وأشرتِ إلى الأسفل "أنظرا! بطة!" ثم ركضتِ وراءها وأنتِ تضحكين بجذل "بطة! بطة!"

لمحتُ السيدة جانين فإذا بها تبتسم أيضاً.رغم كل مغريات المنتزه المُسلية إلا أنَّ اكثر ما لفت انتباهكِ كان كائناً حياً آخر.

***

إن كانت أول كلمة ينطقها الطفل "أمي" أو "أبي"، فلا بد أنَّ ثاني كلمة ستكون "انظر!" هكذا بدا لي الأمر على أيِّ حال.

بما أني عم وخال، فإني قد شاهدت أولاد وبنات إخوتي وأخواتي مراتٍ لاتحصى وهم ممسكون بخرابيش على ورق ويقولون "أمي انظري!" أو يستعدون للقفز في بركة السباحة ويصيحون "أبي انظر!" أو يجتذبون لعبة من على رف محل وينادونني " عمي أو خالي انظر!" ولأننا عائلة صالحة فلابد أن نعيرهم انتباهنا فنهز رأسنا ونقول "هذا رائع" أو "عجيب".

لكني اعترف أن الأمر لم يكن مثيراً لإهتمامي كما كان بالنسبة لهم.

لكنكِ جئتِ يا تشيكا، وتغير شيء ما، ربما لأني صرتُ أكبر سناً الآن، أو ربما لأن عينيكِ كانتا أوسع من عيني، أو ربما لأن الوضع ببساطة مختلفٌ لأنكِ صرت تحت رعايتي، صرتُ أنحني لأرى بمنظوركِ المعجزات الصغيرة،

صغار بط يركضون، ضفادع مختبئة بين الحشائش، ورقة شجر كدتِ تمسكينها فطارت بها الريح، إنَّ أفضل ماقد يفعله طفل من أجل بالغ أن يشده لأسفل، يدنيه من الأرض، ليُصغي جيداً لأصواتها.

فعلتِ ذلك من أجلي يا تشيكا، دفنَّا أنفسنا بأوراق الشجر، تأملنا النمل في طريق السيارة، تدحرجنا في الثلج الذي أدهشك عندما رأيتهِ لأول مرة، صنعتِ أول رجل ثلج في حياتك، جعلتني أنظر بالطرف الثاني لعدسة مكبرة أو لعبة تليسكوب وخلال تلك العدسات أصبح بمقدوري أن أرى وأتعجب من الأشياء كما تفعلين، كانت كثرة أشغالي الداء وكنتِ الدواء.

فقط قولي "انظر!"

انظر! جملة من أقصر جمل اللغة الإنجليزية، لكننا نحنُ الكبار لا نمعن النظر يا تشيكا، نحنُ فقط نلقي نظرة خاطفة ونمضي.

أما أنتِ فنظرتِ بتمعن، ولمعت عيناك بالفضول، أمسكتِ بذباب نار وسألتِ إن كان بداخله بطارية، استخرجتِ بِنساً من الأرض وسألتِ إن كان "كنزاً"، وعرفتِ من تلقاء نفسك أنَّ عليك مشاركتنا اكتشافاتك.

كنتِ تقولين وأنتِ ممسكة بزهرة عطرة "شُمها".

و"تناولها" وأنتِ ممسكة بحلوى شوكولا.

وقد فعلتْ، لقد تبعتك، ركضتُ خلف مزلجتك، ركبت خلفك في لعبة الأحصنة، سبحتُ وراءك في بركة السباحة، هل تذكرين؟ لقد ابتكرتِ لعبة جعلتِ فيها أحد أطراف بركة السباحة أميركا والطرف الآخر هاييتي وجدفتِ بينهما ونقلتِ الأرز والحبوب جيئة وذهاباً قائلة "تفضل! تناولها! إنها لذيذة!" لا أعلم يا تشيكا كيف خطرت لك فكرة هذه اللعبة، ولا لماذا أضحكتكِ كثيراً، لكني سبحتُ بجانبك من دولة لدولة، كان خيالكِ مثيراً للانتباه.

يتعجب الأطفال من العالم. ويتعجب أباؤهم من عجبهم، وفي ذلك كلنا أطفال.

علمتني ذاك يا تشيكا، ولربما كان شعور العجب ذاك موجوداً بداخل كل منا، وأنتِ أشعلتِه لي من جديد.

كانت مشاريعكِ مميزة دائماً، كنتِ تزحفين تحت الطاولات كأنكِ في مهام سرية، وكنتِ تجهزين كؤوس شاي صغيرة لحفلة شاي تخيلية، لقد أنستكِ تلك المشاريع حالتكِ المرضية التي تتربص بك.

لكني لم أنسها.

لقد رفع النجاح النسبي للعلاج الإشعاعي أمالنا، كما رفع شفتيك المتدلية وعينك اليسرى، لقد أعادهما تقريباً لوضعهما الطبيعي، تحسنت مشيتك، فركضتِ، ورقصتِ، ومع انقضاء الصيف صارت حالكِ أحسن من ذي قبل، وهذا يُعد تقدماً أليس كذلك؟

ورغم ذلك إلا أنَّ الأطباء قد حذروني من أنَّ هذه الفترة قد تكون فترة هناء وأنَّ الورم في دماغك ساكن ولم يختفي كبركان يستجمع قواه.

كنتُ أذكر نفسي بأنَّ علي أن أبقى متيقظاً وحذراً.

حضرتُ في منتصف سبيتمبر مباراة كرة قدم جامعية في ملعب جامعة ميشيغان الضخم الذي عُرف سابقاً بالبيت الكبيرعندها بدأت أرى الأمر بوضوح. حضر يوم السبت ذاك أكثر من مئة ألف شخص، رأيتُ من مقعدي في مقصورة الصحافة حيثُ أكتبُ مقالاتي الرياضية عائلة دخلت للملعب، حينها أعلن المذيع العام بصوت جهور"ينضم إلى قائدي الفريقين لرمي العُملة تشاد كار. تعازينا ودعواتنا لعائلة كار." كان الأمر صعباً، عائلة كار هم مدرب فريق كرة ميشيغان السابق لويد كار كنتُ أعرف ابنه جيسون حق المعرفة وزوجة جيسون تامي وأطفالهم الثلاثة، كان أصغرهم تشاد ذو الأربع سنين والذي خصه المذيع بالذكر.

لأنه كان مثلك يا تشيكا يعاني من ورم DIPG.

رأيته عندما كان أبوه يحمله بين ذراعيه وقد كان ضعيفاً، طفل جميل بشعر أشقر، أصبحت معركته مع المرض قصة معروفة في ميشيغان، كانت موضوع تقاريرالتلفاز الصحفية والمقالات، لقد تحدثتُ مع تامي عدة مرات، وقد أخبرتني كل ماتعرفه عن المرض، وعرفتني على مجموعة عائلات تتسلق جبال هذا الورم ويتشاركون أي حافة بارزة ليمسكوا بها وأي منزلق ليتجنبوه، وفي بعض الأحيان يتشاركون بأسى أخبار أولئك الذين سقطوا.

Finding Chika

One

Us

“Why aren’t you writing, Mister Mitch?”

Chika is lying on the carpet in my office. She flips onto her

back. She plays with her fingers.

She comes here in the early morning, when the light is still thin

at the window. Sometimes she has a doll or a set of Magic Markers. Other times, it’s just her. She wears her blue pajamas, with the My Little Pony cartoon on the top and pastel stars on the bottoms. In the past, Chika loved to choose her clothes each morning after brushing her teeth, matching the colors of the socks and the shirts.

But she doesn’t do that anymore.

Chika died last spring, when the trees in our yard were beginning to bud, as they are budding now, as it is spring again. Her absence left us without breath, or sleep, or appetite, and my wife and I stared straight ahead for long stretches until someone spoke to snap us out of it.

Then one morning, Chika reappeared.

“Why aren’t you writing?” she says again.

My arms are crossed. I stare at the empty screen. About what?

“About me.”

I will.

“When?”

Soon.

She makes a grrr sound, like a cartoon tiger. Don’t be mad.

Hmph”.

Don’t be mad, Chika.

“Hmph”.

Don’t go, OK?

She taps her little fingers on the desk, as if she has to think

about it.

Chika never stays for long. She first appeared eight months

after she died, the morning of my father’s funeral. I walked outside to look at the sky. And suddenly, there she was, standing beside me, holding the porch railing. I said her name in disbelief —“Chika?”—and she turned, so I knew she could hear me. I spoke quickly, believing this was a dream and she would vanish at any moment.

That was then. Lately, when she appears, I am calm. I say, “Good morning, beautiful girl,” and she says, “Good morning, Mister Mitch,” and she sits on the floor or in her little chair, which I never removed from my office. You can get used to everything in life, I suppose. Even this.

“Why aren’t you writing?” Chika repeats. People say I should wait.

“Who”?

Friends. Colleagues.

“Why”?

I don’t know.

That’s a lie. I do know. You need more time. It’s too raw.

You’re too emotional. Maybe they’re right. Maybe when you put your loved ones down on paper, you forever accept that reality of them, and maybe I don’t want to accept this reality, that Chika is gone, that words on paper are all I get.

“Watch me, Mister Mitch”!

She rolls on her back, left and right.

“The isby-bisby spider, went up a water spout”. . .

Itsy-bitsy, I correct. The words are itsy-bitsy.

“Nuh-uhhh,” she says.

Her cheeks are full and her hair is tightly braided and her little

lips pucker, as if she’s going to whistle. She is the size she was when we brought her here from Haiti, as a five-year-old, and told her she was going to live with us while the doctors made her better.

“When . . .

“Will . . .

“You . . .

“Start . . .

“WRITING?”

Why does this bother you so much? I ask. “That,” she says, pointing.

I follow her finger across my desk, past souvenirs of her time with us: photos, a plastic sippy cup, her little red dragon from Mulan, a calendar—

“That.”

The calendar? I read the date: April 6, 2018.

Tomorrow, April 7, will be one year.

One year since she left us.

Is that why you’re being this way? I ask.

She looks at her feet.

“I don’t want you to forget me,” she mumbles.

Oh, sweetheart, I say, that’s impossible. You can’t forget

someone you love.

She tilts her head, as if I don’t know something obvious. “Yes, you can,” she says.

* **

There was a night, during her first few months with us, when I read Chika The House at Pooh Corner. Chika loved to be read to. She would snuggle into the crook of my midsection, rest the book cover against her legs, and grab the page to turn it before I finished.

Near the end of that particular story, a departing Christopher Robin says to Pooh, “Promise you won’t forget about me, ever. Not even when I’m a hundred.” But the bear doesn’t promise. Not at first. Instead he asks, “How old shall I be then?”—as if he wants to know what he’s getting into.

It reminded me of our orphanage in Haiti and how, the moment a visitor arrives, our children ask, “How long are you staying?” as if measuring the affection they should dole out. All of them have been left behind at some point, staring at the gate, tears in their eyes, waiting for someone to return and take them home. It happened to Chika. The person who brought her departed the same day. So perhaps this is what she means. You can forget your loved ones. Or at least not come back for them.

I glance again at the calendar. Can it really be a year since she’s gone? It feels like yesterday. It feels like forever.

All right, Chika, I say. I’ll start writing. “Yay!” she squeals, shaking her fists. One condition.

She stops shaking.

You have to stay here while I do. You have to stay with me, OK?

I know she cannot do what I'm asking. Still, I bargain. It's all we really want, my wife and I, since Chika has been gone; to be in the same place with her, all the time.

"Tell me my story," Chika says.

And you'll stay?

"I'll try."

All right, I say. I will tell you the story of you and me. "Us," she says.

Us, I say.

You

Once upon a time, Chika, I came to your country. I wasn't there the day you were born. I arrived a few weeks later, because a really bad thing happened. It was called an earthquake. An earthquake is when—

Us

—“Mister Mitch. Stop.” What’s the matter? “Don’t talk like that.” Like what?

“Like I’m a baby”.

But you’re only seven.

“Nuh-uh”.

You’re not seven anymore?

She shakes her head.

How old are you?

She shrugs.

What should I do?

“Talk like a grown-up. Like you talk to Miss Janine”.

You’re sure?

She takes my wrists and guides them back to the keys. I feel

the warmth of her little hands and I revel in it. I have learned I cannot touch Chika, but she can touch me. I am not sure why this is. I don’t get the rules. But I am grateful for her visits and hungry for every little contact.

I start again.

You

I wasn't there the day you were born, Chika. I arrived in Haiti a few weeks later, to help after a terrible earthquake, and since you tell me I should talk like a grown-up, then I can say it was seismic enough in thirty seconds to wipe out nearly three percent of your country's population. Buildings crumbled. Offices collapsed. Houses that held families were intact one moment and puffs of smoke the next. People died and were buried in the rubble, many of them not found until weeks later, their skin covered in gray dust. They never did get an accurate count of those lost, not to this day, but it was in the hundreds of thousands. That's more people killed in less than a minute than in all the days of the American Revolution and the Gulf War combined.

It was a tragedy on an island where tragedy is no stranger. Haiti, your homeland, is the second poorest nation in the world, with a history of hardship and many deaths, the kind that come too soon.

But it is also a place of great happiness, Chika. A place of beauty and laughter and unshakable faith, and children—children who, in a rainstorm, will hook arms and dance spontaneously, then throw themselves to the ground in hysterics, as if they don't know what to do with all their joy. You were happy there in that way once, even very poor.

***

The story of your birth was told to me as follows: on January 9, 2010, you entered this world inside a two-room cinder block house by a breadfruit tree. There was no doctor present. A midwife named Albert delivered you from your mother's womb. From all accounts, yours was a healthy birth, you cried when you were supposed to, you slept when you were supposed to.

And on your third day of life, January 12, a hot afternoon, you were sleeping on your mother's chest when the world shook as if the dirt held thunder. Your cinder block house wobbled and the roof fell off and the structure split open like a walnut, leaving the two of you exposed to the heavens.

Perhaps God got a good look at you, Chika, because He didn't take you that day, and He didn't take your mother, even though He took so many others. Your home was destroyed, but you were both left intact—naked to the sky, but intact. All around, people were running and falling and praying and crying. Trees lay on their sides. Animals hid.

You slept that night in the sugarcane fields, on a bed of leaves, under the stars, and you slept there for many days that followed. So you were birthed into the soil of your homeland, Chika, all its roiling rage and beauty, and maybe that is why you sometimes roiled and raged yourself, and were so beautiful.

You are Haitian. Although you lived in America and died in America, you were always of another place, as you are now, even as you sit here with me.

Us

“That’s better,” Chika says, lying on her back. Good, I say.

“Mister Mitch?”

Yes?

“I know about the tranbleman tè.”

The earthquake.

“It was bad.”

Yes, it was.

“Mister Mitch?”

Yes?

“I have to tell you something.”

What?

“I can’t stay.”

Her big eyes look up at me, and I swear, even if I were a mile

away, I could still see them. They say a child’s eyes are fully formed around age three, and that is why they appear so large on the face. Or maybe those years are just so full of wonder, the child can’t help it.

Can I keep going? I ask. For now?

She purses her lips and shakes her head back and forth, as if she just tasted a bitter lemon. She did this all the time when she was alive, as if every thought needed a tumble through her brain.

“Keep going,” she decides.

You

Once, late at night, Miss Janine and I were crouched next to your bed and you said to us, quietly, “How did you find me”?

I thought it such a sad question that I could only repeat it. “How did we find you?” And you said, “Yes.” And we said, “You mean how did you come to us?” and you said yes, again. But I think you meant it the way you said it, because life before the orphanage was foggy in your memory, like being in a misty forest, so “How did you find me?” makes sense, because to you, I suppose, it felt as if you were found.

But you were never lost, Chika. I want you to know that. There were people who loved you before we loved you. Your mother, Resilia, from what I have been told, was a tall, strong woman with a broad face and a stern expression, like you have sometimes when you do not get your way. The daughter of a yam farmer in the seaport of Aux Cayes, she came to Port-au-Prince when she was seventeen. She liked to read and eat fish and she sold little things on the street to earn money. She had a friend named Herzulia, and they would take walks together and laugh about men and eventually your mother got involved with a man of her own, an older man with sad eyes whose first name was Fedner and whose last name was Jeune, which is your last name, too. Jeune, in French, means “young,” so it suits you.

Your mother and Fedner had two girls who preceded you, your older sisters, and when your mother got pregnant with you, she told Herzulia that you would be her last child. Together they chose an elegant name for you, Medjerda, although very soon everyone was calling you Chika. Someone said it was because you were a stocky baby. Someone else said Chika is a term of endearment. It doesn’t really matter. We have names we are given and names that just attach to us, and Chika

was yours. And had your mother been right, had you been her last child, she might be alive and I might never have met you.

But she and Fedner had one more baby after you, two years later, a boy. He arrived in the hottest month of the year, August, in the early hours before the sun came up. Albert, the midwife, was again present, but this time something went wrong.

Your new brother lived.

Your mother died.

I know it makes no sense to have birth and death in the same

bed, Chika, but that is what happened, and that was the last you saw of your birth family for a long time. Herzulia carried you off after the funeral. She said your mother had chosen her as your godmother and had insisted, “If I ever die, you must take Chika.” So she did. Your father did not object. He did not keep any of his children. Maybe he was too stunned by your mother’s death, and he literally did not know what to do.

Whatever the case, your oldest sister, Muriel, went with an aunt, your second oldest, Mirlanda, went with a family friend, your new baby brother, Moïse—whose namesake in the Bible was raised by an Egyptian princess—went with your mother’s brother, to a cramped apartment he shared with his wife.

And you went with Herzulia, a short, strong woman with a high, thready voice who loved your mother very much and who cried the whole day of her funeral. She took you and two sets of your clothes that afternoon and together you rode off in the back of a Haitian tap-tap bus.

Those clothes were all you got to keep from your first home, Chika. It is not a lot, I know. I can only say that God was merciful by not letting you

remember those days. Your mother was buried in a large grave with other people, and there is no marker for her anywhere, nothing with her name that you can visit or pray over, although you can always pray wherever you are, you know this from your teachings.

Your next home did not last long. Less than a year. It was a single-room apartment in a cinder block structure that you shared with Herzulia's family. There was no bathroom inside. At night, when the electricity went off, it was total darkness, and in the mornings, you would carry dirty bedsheets up the stairs to the rooftop, a dangerous undertaking for a child not yet three years old. A woman saw you doing this and grew concerned for your safety. She suggested to Herzulia that you might be better off in an orphanage. She knew of one not far away, in the section of the city known as Delmas 33.

That is the orphanage I have operated since 2010, the year of the earthquake, the place you called misyon an, "the mission," specifically, the Have Faith Haiti Mission, a rectangular piece of land behind a high gray gate on Rue Anne Laramie, a terribly potholed street that gathers water like a small lake when it rains.

And that, Chika, was the beginning of providence moving our lives together, or the continuance of it, I should say, since the Lord doesn't get ideas partway through a life.

Do you remember meeting me? You said sometimes you did, but other times I wondered, because you were still so young, only three. You had clips and ribbons in your hair, and you were wearing a pink dress that Herzulia picked out, because the Haitian adults who come to us often feel if their young ones are well attired, we will be more inclined to take them. This is not true, of

course. At times it seems incongruous, dressing up children who are being brought to us in poverty. Perhaps it is about pride, which is something you must respect, especially in a foreign country, because you won't always understand it, and there were many times in Haiti I did not.

To be honest, Chika, for my first few years, I didn't understand a great deal about Haiti, or the orphanage, or how I was supposed to make the place work. The power would go off every day, the water would run out, deliveries of rice and bulgur would start and stop, and we never had enough medicine. Repair people would say they were on their way, then never show up. Paperwork—from receipts to government documents—was done by hand. I was a writer by trade, living in Detroit, and while I had overseen some charitable operations in America, in Haiti, I often felt like a man trying to read assembly instructions in another language.

On top of that, Miss Janine and I had no children of our own. So despite my enthusiasm, I was inexperienced with parental things. I fumbled with tiny zippers and buttons. I overreacted when a child threw up. I stumbled through explaining puberty to our boys.

But I knew this: when children were brought to our gate, I had to look past their appearances, because there were so many, and so much need, and for every child we could say yes to, even now, there are ten to whom we cannot. The majority of Haitians live on less than two dollars a day, and many have no power, no clean water, and must rely on charcoal for cooking. For every thousand babies born, eighty will die before their fifth birthday.

Keeping children safe and fed is a desperate priority for many Haitians, Chika. A place like ours can offer that hope. Perhaps that's why so many come. And when

they do I must ask questions. Such as, how are the children living? How are they eating? What dire conditions have brought them to us?

You should know that when I ask such things, the adult will sometimes burst into tears. One mother in her early twenties came to us so pregnant I thought she might give birth in the office. She had a son, maybe four years old, standing beside her, and an infant in her arms. She begged us to take them both, because she had no money, no job, no home, no food to feed them. When I asked how she would provide for the baby she was carrying, she cried out, “Ou mèt pran li tou,” you can have it as well.

She was not being heartless. I believe that she loved her children—so much so that she wanted a safer life for them, even if it meant she could no longer see them every day. It takes a special strength to take care of a child, Chika, and a whole different strength to admit you cannot.

Perhaps Herzulia felt this when she brought you to us. She said she had three children of her own and no money. As we talked you watched in silence, Herzulia occasionally straightening your dress.

Here is what I remember the most. After a while, you crossed your arms, as if you were getting impatient, and I looked at you and you looked back, and I stuck out my tongue and you stuck out yours, and I laughed and you laughed in return.

Most new children, when brought to our mission, are shy and nervous and look away if I catch their glance. But you went eye- to-eye with me, right from the start.

And even though I knew so little about you, Chika, I could tell that you were brave, and I knew that being brave would help you in this life.

I did not know how much.

Us

“Wait, Mister Mitch ”.

Yes?

“I have a question”.

All right.

She puts her hands on my desk and pushes against it. “When

I came to the mission, did I cry?” No.

“Was I mad”?

I don’t think so. Why would you be mad?

“Because I was so little!” she intones, as if it’s obvious. “And I

had to go away”!

Are you mad about that now?

“No.” She looks off. “I don’t get mad anymore”.

This actually saddens me, because Chika’s temper was one of

her most endearing traits. She would cross her arms and turn away from us, dropping her chin deep into her chest. If I came up on her right, she’d spin left, on her left, she’d spin right. When I squatted in front of her and held her by the shoulders, I’d have to suppress a grin. Such a scowl! Although she was just a child, Chika had perfected the look of a middle-aged man on a long bank line.

Are you happier now, I ask, not getting mad?

“Sometimes I miss it”.

When?

“Like, remember if I yelled, and you and Miss Janine would tell

me, ‘Chika, we don’t yell at each other”?’

That’s when you miss being mad?

“I don’t miss being maaaad,” she drawls. “I miss you telling me not to be”.

I pause and swallow, the way I often did during her life, when her inadvertent wisdom caught me off guard.

“Mister Mitch”?

Yes?

“Was I your favorite kid in Haiti”?

The question makes me smile. The fact is, from the day we took her in, Chika was a bossy ball of fire who was soon directing the other kids like a drill sergeant, even the older ones, telling them who should go first in relay races, which doll they should play with, where to stand on line for the bathroom. She had a strong voice and a stubborn streak, and I believe some of the shyer kids were terrified of her. I wish I knew where her bravado came from, what happened before us that made her so bold. All I know is when I look at photos from those early days, she is often posed with one hand on a jutting hip, wagging a finger, and you can almost hear her saying, “No, no, no”.

You are all my favorites, I tell her now.

“You always say that”.

Well, you are.

She rolls on her stomach and suddenly has a doll. I don’t

know where it came from. It's a princess of some kind, with a blue dress, black hair, and a tiara. She pushes both arms up, so the doll is reaching for the heavens.

"Mister Mitch"?

Umm?

"Why didn't you have babies"?

I pause.

What do you mean?

"You said people brought you their babies, but you and Miss

Janine didn't have babies".

I'm writing your story, Chika. What does that have to do with

your story?

Her eyelids lift like a clamshell opening. She knows it had everything to do with her story.

Me

Well. All right. The true answer is selfishness. I have always warned you about being selfish, Chika, but that does not mean I was not selfish myself. I was, often, especially when I was younger, and especially with my time. I thought there was so much left. I thought starting a family was like a new carpet I could store in a closet and unroll when I was ready.

So during my dating years, if a woman spoke too much about children, I ended things. Work was my focus, covering sports, and I took on every assignment I could get. My one long relationship, before Miss Janine, went as far as an engagement ring, but the woman changed her mind and abruptly left—to marry another man—and after a few months of hurt and confusion, I told myself maybe it was for the best.

I passed through my twenties, chasing success, and was in my early thirties when I met Miss Janine. And even though I fell deeply in love with her, I hesitated. She was beautiful and patient and saw the best in me, even when I did not deserve it. But when it came to marrying, a part of me remembered what had happened before and made me wonder: How can you be sure? Maybe something else is destined for you? I see now that was just a way to maintain Miss Janine's company without committing to a future. It was selfish, Chika, and when I finally realized how lucky I was to be with her, a lot of time had passed.

We married seven years after we met, when we were both in our late thirties. Yet even after the wedding, I delayed us starting a family, saying we should enjoy being married for a while, not rush into it. And soon, all that was left for us was to rush, and meet with doctors, and try extra things to have babies. But those things did not work, and the years passed, and soon it was impractical and even unsafe.

Eventually, we settled into different roles: aunt and uncle. Between us we had seven brothers and sisters, who between them had fifteen children. We babysat. We played. We

attended our nieces' and nephews' school assemblies, took them for dinners and on vacations. On Christmas Eve, when the families gathered, we gave them all presents.

But on Christmas morning, we woke up to a silent house, and I sometimes found Miss Janine crying in our bedroom. It is all right not to have children if you don't want them, Chika, but if you do, their absence can be aching. It was my fault. To this day, it pains me. There are many kinds of selfishness in this world, but the most selfish is hoarding time, because none of us know how much we have, and it is an affront to God to assume there will be more.

Us

“Mister Mitch?” Yes?

“Did you say you were sorry?” To Miss Janine? Many times. “Did she say, ‘It’s OK”?’

Kind of.

“Because you learned your lesson”?

What do you mean?

“That’s what Miss Janine would say to me. ‘Did you learn your

lesson, Chika?’ And if I said yes, she would say, ‘Then it’s OK. As long as you learned your lesson.’” She mimics my wife’s voice. “‘It’s OK, Chika. I love you, Chika.’” Chika likes saying the word Chika.

I guess I learned my lesson, I say. I’m still learning new ones. “But you are not in school”!

Not school lessons, Chika. Lessons about the world and how

to live in it. You taught me some. “Me”?

She seems genuinely surprised. She places her hands on the sides of my face. The warmth of her fingers loosens something inside me, and despite knowing better, I blurt out the question: How are you here?

For a moment, she appears very serious. Then she wags her tongue and makes a b-duh-b-duh-b-duh noise. She laughs and releases me. The warmth departs.

“Can I have a piece of paper?” she says .

I hand her a yellow pad.

“Can I have something to draw with”?

I hand her a marker.

“Mister Mitch? Did I really teached you something”?

Teach me. Yes. You taught me many things.

“Then here”!

She slaps the pad and marker on my desk. Her voice rises.

“Now I am the teacher! You have to write what I teached you! And don’t stop”—she wags a parental finger—“until you are finished”!

Why?

“Because then I can stay.” Wait, I say. Forever?

But she is gone .

Two

It is August of 2013. I have been operating the orphanage for three years. We have functional water, healthy food, and many new children. And while much of Haiti remains a mystery to me, coming here every month has made certain things routine.

I land at the Port-au-Prince airport, go through passport control, shuffle past a small Haitian band playing welcome music. I descend the escalator, which, per usual, is not working.

Alain Charles, our Haitian director, stands at the bottom, having talked his way inside. (By now he knows nearly everyone who works here.) We retrieve the bags and push out the doors, which is like entering a tunnel of burning air. Sweating men in button-down shirts grab at my luggage and yell, “Hello, sir! . . . I help you, sir!” We fight the crowd to reach the car.

As we weave through heavy traffic, we pass piles of earthquake rubble, still visible after three years, and mounds of trash, some of it on fire. A stray goat. A skinny dog. Potholes that could swallow a vehicle whole. Finally, with a horn honk, a security guard opens the gate of our orphanage. We pass through and honk again.

I open my door and the whole world changes.

I hear the most wonderful sound—squealing children—running my way. They are led by our newest arrival, Chika Jeune, who has only been here a few weeks. The others yell, “Mister Mitch!” but she doesn’t really know me yet. Still, she seems determined to be first. The kids grab my legs and jump on my waist and she raises her arms, so I lift her up. I am often amazed by how little a child needs to know you to want your embrace.

“And how are you, Chika Jeune?”

She doesn’t answer. She speaks no English.

“Sak pase?” I try, a Creole expression akin to “What’s up?” She grins and grabs my neck and buries her head.

“It’s OK,” I say, “you’ll talk later.”

Us

It is May before Chika visits me again. The anniversary of her passing comes and goes, and while we receive calls and sympathy cards and emails from loved ones, there is no appearance from Chika herself. Each morning I go down to my office and linger by the computer, watching old videos of her, waiting. But she does not come.

Sometimes, I take the marker she left me and slide the pad beneath it, tapping on it with the closed tip. What she taught me. Where would I even start? I keep thinking about what she said, that she would stay forever if I completed this task. And while I know that is impossible, I can't ignore the temptation. If I'm really going to write about her, and me, and us, maybe that's the way to do it.

So, eventually, because Chika loved numbers, I put a number down for each big lesson learned. I could list hundreds. I stop at seven.

She died on the seventh.

She was seven years old.

I wait for her return.

Finally, on a rainy Monday morning, Chika reappears. She is

sitting on the edge of my desk, her little legs dangling. I am relieved to see her, but I say only, "Good morning, beautiful girl," as I did every morning when she was alive.

"Good morning, Mister Mitch." Her voice is froggy, as if she just woke up. She lowers herself to the floor and begins poking around for the list.

I missed you, Chika.

She doesn't answer, but I can see she is pleased. Often we'd tell Chika "I missed you" or "I love you," and rather than responding, she would merely tilt her head, as

if watching the words float toward her, absorbing the sentence like sunshine on her face.

“Did you write something, Mister Mitch?”

Yes.

I point to the yellow pad, and she leans over for a better look.

The first line reads: “I Am Your Protection.”

“What does thaaat mean?” she says.

It means to take care of someone, Chika. To protect against

danger. You know that word. Protection.

“Like Aslan the lion?” she says.

She’s referring to The Chronicles of Narnia. Aslan is supposed

to be Jesus. So I may have gotten in too deep here.

Sort of, I reply. I’m making a list of what you taught me. That’s

the first big thing. Protection. She crosses her arms.

“I don’t get it,” she says.

Lesson One

I Am Your Protection

Well, let's see. Do you remember once flying so high on the mission swing set that you nearly came out of the seat, and I grabbed you and slowed your trajectory? Or when we went in the ocean, and I held you beneath your arms so your head didn't go underwater?

That's one kind of protection, Chika. It probably seemed natural to you, a grown-up stepping in to stop bad things from happening. But it was new to me. Until I got to Haiti, my protecting was directed mostly to Miss Janine, my career, and myself. I protected our health. I protected our money. I protected my books and my professional reputation. I said I had been selfish, but this was not about that. Nobody needed me. Not in that crying newborn way, when a mother and father realize it is just them, and all other interests must be pushed aside.

Miss Janine and I never went through that, not with you, and not with the other kids at the orphanage, as much as we love them. We never got to hold you when you were wet and fresh to the world, nor did we root for your first steps, or pack diaper bags and animal crackers when we traveled.

In truth, we did not meet most of you until you could already walk and talk, and in many cases had been through incredible hardships: being abandoned in the woods as an infant, which happened to one of your mission brothers, or losing parents in an earthquake or a hurricane, which brought us your four little mission sisters from the town of Jérémie—some of whom had been living beneath the muddied remains of their homes for months.

I could not protect them from those things. But I was determined to protect them from anything else, just as I was determined to protect you. I had to consider things I never thought about before, like how slippery the floors were, or how potholed

the concrete was where the kids played soccer, or how to intercept tiny toys that could be swallowed, or containers of diesel fuel for the generator that might get into the wrong young hands.

In the early months, I thought if I only focused more, I could guard against anything. But like walking into a swarm of bees, the more you swat at dangers, the more of them seem to appear. As we admitted more children I worried about our building (still not earthquake-proof), our upper level (what if someone fell?), our water tanks (what if something poisonous got in them?). It was overwhelming. Gradually, I had to face the fact that I could not control everything, no matter how fast my eyes darted from spot to spot. This was hard. I am not good at being vulnerable, Chika, or relying on the Lord to handle it all, even though many around me in Haiti were at peace under His watch. Protecting our kids became the biggest and most anxious priority in my life.

But because you were all so young, I thought more about accidents and mishaps, not long-term health.

Then, one day, when I was back in Michigan, I got a phone call from Mr. Alain.

“Sir, there is something wrong with Chika.”

“What’s wrong?” I said.

“Her face. It is drooped. And she is walking funny.”

“Did you take her to the doctor?”

“Yes, sir.”

“What did he do?”

“He gave her eyedrops.”

“Alain, it’s not her eyes. Can you find a neurologist?”

“Sir?”

“A nerve doctor.”

“I will find one.”

I remember hanging up and feeling unsettled, as if something

ominous was coming, like the rolling thunder on Haitian afternoons before the heavy rains fall. We never needed a neurologist before, Chika. A skin doctor, yes. A dentist, sure. Cough medicine, diarrhea medicine, children’s Tylenol. But a neurologist?

How serious is this? I wondered.

***

When we finally found that neurologist, he noted the droop of your mouth and your left eye, and how your gait was slightly off. He ordered an MRI. At the time, there was only one MRI machine in Haiti, and it cost $750 cash for an appointment.

Mr. Alain took you there. You left before sunrise. Six hours later, a nurse finally called your name. She made you drink a syrup that put you to sleep. You were placed inside a large cylinder, where radio waves and a magnetic field were generated around your head. The results were images that showed you from the inside.

And while I would have told people that on the inside, Chika, you were warm and curious and confident and funny, the MRI analysis was more clinical:

“The child has a mass on her brain. We don’t know what it is. But whatever it is, there is no one in Haiti who can help her”.

I read that.

And everything I knew about protection changed.

You

All right. Here is what I recall. You were the first child we ever brought to this country, and the day of your departure, the other kids at the mission lined up to hug you. They waved goodbye as the car left the gates. I imagine some thought they would never see you again.

Accompanied by Mr. Alain, you flew to Miami and on to Detroit, wearing a white sweater, even though it was June. In your first American bathroom, you turned the faucet and jerked your hands back, because you had never felt hot water from a sink before. So before you even slept a night here, this country was a wonder to you.

Miss Janine and I were waiting at the house, and Miss Janine had arranged some colorful blankets and dolls to make you feel welcome. At the time, we hoped the doctors would diagnose the problem and treat it quickly, and you would heal under our watch. Then you could return to Haiti. We thought this would take a few months. Looking back now, we really knew so little.

I should say you did not seem scared when you got here, Chika, but you did not speak much, either. Or show much emotion. Mostly you looked around. Who could blame you? Virtually everything you saw was new: traffic lights, highways, houses with yards, mailboxes, televisions in different rooms. The input had to be overwhelming. I often wondered, when you went to sleep that first night, how far you imagined yourself from the mission.

The day after your arrival, we went for tests at Mott Children's Hospital in Ann Arbor, part of the University of Michigan, a great school that I'd dreamed you and the other children might one day attend. It was the tallest building you had ever

seen, and you gazed up as we walked inside. We approached the front desk. A man said hello. He gave you a wristband, which you admired like a bracelet.

Then the man turned to me and asked, “What is your relationship to the patient”?

For a moment, I hesitated. All around were mothers and fathers, many looking similar to their children, same hair, same skin color, same facial features. I felt as if I’d been caught trying to fool someone. I answered by saying “legal guardian,” because those are technically the correct words, and the man wrote something down and asked me to stand before a camera.

“Mister Mitch!” you suddenly yelled. “Look!” You pointed to a large Superman figure in the lobby. I released your hand and you ran to it, just as the man handed me a sticker with a grainy photo of my face.

Above the photo was one word: Parent. I stuck it to my shirt.

It is the fall of 2013, and Chika Jeune has been at our orphanage for a few months. As the smallest and youngest, she goes first in line for the bathrooms, or for school. She seems to enjoy the other kids marching behind her. Still, I often see her playing by herself, preferring to take a toy to a private corner. New children are frequently quiet, finding a coloring book or a doll to cling to, perhaps because there’s nothing to cling to from their past. I wonder how long it will take Chika to move from outsider to insider.

One evening, we are doing our nightly devotions, a tradition of prayers and effusive gospel singing, punctuated by bongo drums and energized by the sheer volume of high-pitched voices. The kids will yell out a song and launch into it, some in Creole, some in English, from “Shout to the Lord” and “I Give Myself Away” to “Jeriko Miray-La Kraze” and “Mwen se Solda Jezi.” Sometimes, it sounds like screaming in a sports rally. But it remains a sight to behold, young ones with so little, singing their thanks to the Lord.

On this night I am sitting by a wall, with several kids leaning against me. In the middle of an upbeat song, Janine catches my attention.

“Look,” she says, pointing.

There, a few feet away, is Chika Jeune, in a white nightshirt, clapping and swaying her head to the beat. Her eyes are closed, and she is punching the air and laughing between the lyrics. When the song ends, she throws an arm over her braided hair and gives the sweetest openmouthed smile, as if to say, “That was fun. Can we do it again”?

I make a mental note. The praying did it. She’s in.

Me

I guess I should explain, Chika, what I was doing in Haiti when you came to us, and how I wound up in charge of an orphanage seventeen hundred miles from home.

It began, as many good things do, with a coincidence.

A few days after the earthquake, a local pastor named John Hearn Jr. came on a radio show I host in Detroit. He was worried that a Port-au-Prince mission he was associated with had been destroyed, and that the children there might have died. He could not get a phone call through (few people could at the time) and he was seeking help.

His story moved me greatly. I'm not sure why. In my role as a journalist, I have interviewed many people after natural disasters. And while I have always encouraged assistance, I've rarely provided it personally.

This was different. Something about not knowing the fate of children seemed terrifying. I tried to organize a trip for the pastor, but there were still, at that time, no commercial flights going into Haiti. I was finally able to charter a small plane and found two pilots willing to fly it. The plane held six passengers, so Hearn brought along his father, John, who had helped start the mission, and an elderly woman named Florence "Mommy" Moffett, a quiet, lovely missionary who had lived and worked at the orphanage for years. I recruited two colleagues who filled the other seats.

And with the help of a U.S. senator named Carl Levin, we were granted—by the American military, which was controlling air traffic into Haiti after the earthquake—a ten-minute window to land. We took off from the snow in Pontiac, Michigan.

Nearly five hours later, we descended into the heat-baked runways of the Port-au-Prince airport, or what was left of it.

When the engines shut off, I left my winter coat on the seat and stepped outside. The sun was intense. The air was still. In the distance were mountains and more

mountains (“land of high mountains” is the aboriginal meaning of the word Haiti). Mostly it was quiet. Eerily quiet, as if the country were mired in a stunned aftershock. I studied the facade of the sand-colored terminal. It read: AEROPORT INTERNATIONAL TOUSSAINT LOUVERTURE, named for the leader of the Haitian revolution more than two centuries ago.

Thanks to the earthquake, there was now a large crack over the word Toussaint.

We unloaded the cargo with no officials, and no security. The only nod to a functioning airport was in a terminal hallway, where a fold-up table had several women sitting behind it, beneath a piece of white paper taped to the wall. It read:

“STOP!!! HAITI IMMIGRATION”.

We passed through in a minute.

The ride to the orphanage, in a wobbly blue van missing its

door panel, was only twenty minutes, but it will be etched in my mind forever: street after street of what used to be buildings, now flattened, their insides spilled out in mountains of gray rubble, as if fed through a blender. The chunky piles were spiked by the occasional leg of a desk, or a mattress. Crushed cars were abandoned under debris. People wandered the streets like zombies. Grim-faced street vendors squatted near piles of clothing, and women hovered over rotted fruits and vegetables. Kids stood in line to gather water from street puddles.

Everyone appeared to be outside. I saw nobody in a window or coming out a door. I would later learn that many Haitians refused to enter buildings for months, fearful that the remaining structures would collapse on top of them. The choked air smelled of diesel and burning trash, and my eyes were stinging before we even reached our destination.

The orphanage itself was, thankfully, spared. But it was overrun with outsiders, who mixed with children in makeshift tents. In Haiti, after natural disasters, people often flock to orphanages and hospitals, believing relief agencies will bring food there first. But I saw little in the way of relief or food, outside of some rice and beans cooked over charcoal by women I presumed to be orphanage staff.

It was impossible to tell who belonged there and who had wandered in. Laundry lines crisscrossed the yard, old foam mattresses were scattered on the dirt. There were many weary- looking people, leaning against the walls, squinting into the sun. They asked for food. When we opened the boxes that we'd crammed on the plane—bottled water, Sani-Cloth Wipes, jars of aspirin, cans of Coke—we were mobbed.

At one point, I became dazed by all that I was seeing. It was steamy hot and my shirt was soaked and I was foolishly wearing black jeans, which imprisoned the heat against my legs. I exhaled hard.

And suddenly, with my arms by my side, I felt two little hands slip into my fingers. I glanced down to see a little boy and girl, one on each side. I can't tell you who they were, Chika, or even if they belonged at the orphanage. But they smiled and led me forward, and I realize now they were walking me into their world and, in time, into yours.

But all right. I haven't explained how a trip turned into a commitment. Upon returning to Detroit, I wrote about what I'd seen and asked for help. We quickly organized a team of volunteers: roofers, plumbers, electricians, contractors. There were twenty-three of them in all, and they dubbed themselves The Detroit Muscle Crew. With airplanes donated by Roger Penske, the former race car driver turned successful businessman, and Art Van Elslander, owner of the Art Van furniture chain, we packed up with supplies, tools, and small machinery and headed back to Port-au-Prince

Then we went again.

And again.

And again.

Over nine separate trips, alongside Haitian laborers, we built

toilets, a kitchen, a dining room, and a laundry area. We laid tile. We assembled bunk beds. We painted filthy walls with bright sherbet colors. We eventually constructed a three-room school.

We also built the orphanage's first showers, jerry-rigged with white PVC pipe that ran down from a rooftop water tank. To that point, the kids' bathing had been limited to soapy water dumped from a large red bucket.

When time came to test those showers, the youngest children crowded inside. Wearing shorts or underwear, they stared curiously at the knobs and the faucet. We counted "one, two, three" and opened the pressure. The water sprayed down and they howled in delight, as if experiencing the Lord's first rainstorm. They splashed and laughed and sang and did a dance. They were so joyous, doing something I all but sleepwalked through every morning of my life, that my heart shifted. I could physically feel it, an epiphany maybe, because that word means the manifestation of something divine, and that is how it felt, and how the following days there felt. I was exhausted yet elevated in an almost unearthly way. I found myself laughing more freely than I did in the States, and sleeping better. Each day I felt less encumbered, despite a workload that began at sunrise and ended in mosquito-swarmed darkness.

"I think we can make a difference here," I told Miss Janine. "Then we should keep going," she said.

And we did. I flew down every month. In America, my daily life

was a good deal about thinking—creating stories, making decisions, adjusting my schedule, juggling phone calls. In Haiti, there were just things to do, and what we did allowed children to eat, to sleep, to have shelter; things so primary, there was no debating

their importance. With each visit my connection to the kids grew stronger. I learned their names and personalities. I was greeted by their leaping embraces. It was adults who brought me to Haiti, Chika, but it was children that brought me back.

In Detroit, I met again with the senior John Hearn, who was in his mid-eighties. He explained his history with the place. Over time, he said, the burden had increased. He thanked me for all the physical improvements our Muscle Crew was making. But he admitted he didn't have the money to operate the orphanage, and hadn't in some time. He himself was only able to go down there periodically.

Which is when, in a rush of something I cannot to this day explain, I referenced other charities I had created in Detroit and blurted out, "If you want, I could take over running the orphanage. I can find the money. And the people. I think".

He clasped his hands together and grinned. We signed papers.

And I have been there ever s—

Us

“—OK, OK, OK,” Chika interrupts, sighing. OK what?

She lifts one of my coffee cups. “Too much talking about you!” She plops the cup down.

“I wanna hear about ME”!

My instinct is to remind her about manners, but I don’t. I have always found something forgivable about children seeking attention and the lengths they will go to get it. Chika liked center court. If Janine and I would speak too long, she’d yell, “Hey, what are you guys talking about?” If we sat to play a board game, she’d grab the pieces and instruct, “You are the green. I am the red. Red is the boss”!

Of course, when she first arrived, her English was more limited, so we navigated through sentences like “Help, I not can open” when she was holding a banana, or, “There is him!” if she spotted a lost toy. Pronouns took a long time.

But as the weeks passed, and Chika added sentence after sentence, we witnessed an exceptional development, and a boundless curiosity about her past and future.

“When will I fall in love?” she asked us one night.

Janine and I just looked at each other.

“Well, when you’re older,” Janine finally said. “And you meet

the right person”.

“But when will that be?” “We don’t know”.

“Why do you want to fall in love, Chika?” I asked.

She made a face. “Because you fell in love”—she crossed her arms—“and I wanna fall in love!”

She said it so emphatically, I half expected the Lord to produce someone for her right then and there.

“And who do you want to fall in love with?” I asked.

“I don’t know,” she replied. “I want to fall in love with someone I never met before!”

“Why?”

“Because that’s how you did it. You fell in love with Miss Janine. And you haven’t met her before!”

I was left speechless at how her mind worked. But my heart was full. In a way, she was saying she wanted a love like ours. It made us feel like we were doing something right.

“Mister Mitch?” Chika says now. Hmm?

She puts back the coffee cup and pushes two hands against my knee. Then she looks me in the eye. And the one thing she’s never asked me before, she finally asks.

“How did I get sick?”

You

Well.

How do I explain this?

The Creole word for “head” is tèt. You know that, of course.

Haitians use it in many expressions. Like tèt vire (a spinning head), which means “dizzy,” or tèt ansanm (heads together), which means “unity,” or tèt frèt (cold head), which means “calm”.

Or tèt chaje (loaded head), which means “trouble”.

You might never have learned that last one, Chika, but it fits your story, because most every part of you was perfect when you came to us, your lungs, your tummy, your heart, but just above your neck, in the part of the brain they call the pons, you were tèt chaje, a head loaded with something. And that something would indeed prove troubling.

That first day in Ann Arbor, they took another MRI. This time there was no syrup or long wait time. We rode an elevator down to a brightly lit, antiseptic room, and they slid you inside a giant cylinder and played music through speakers. We were home in time for supper.

But when the results came back, the doctors saw the same thing as the Haitian neurologist: an invader had squatted in your brain, a spot on the scan that was sizeable, if diffused. It was something that was not supposed to be there, on that they agreed, and the idea was to take it out. But they debated as to whether it was worth the risk.

Days passed. Finally, the doctors on a “tumor board” met and took a vote, because, much like our decision making at the orphanage, they have to be realistic with the people who come to them. Five of the eight voted yes, which meant proceed with your surgery. I tried not to think about the three who voted no.

We wanted to prepare you for what was going to happen. But your English back then wasn't what it became, and my Creole was just so-so, and anyhow Miss Janine and I decided that this was not going to be a crash course for you in brain surgery, the way it had to be for us. Maybe we made the right decision, maybe we did not. I think we did. You were five years old, and we wanted you to enjoy being five years old, so we weren't showing you drawings of lobes and ventricles.

When we woke you early on the day of the operation, we hugged and kissed you as we always did, and we sang a good morning song as you dressed in the predawn darkness. We told you we were going to the building with the Superman, where the doctors were going to help you feel better. You yawned. You chose a doll for the ride. I lifted you into the car seat.

And exactly five years, five months, and six days after you entered this world in that cinder block house by the breadfruit tree, you entered the towering Mott Children's Hospital, where they assigned us a room and brought you a gown, light blue, with dancing bears all over it. Miss Janine helped you change.

At one point, I was asked to sign consent papers in the hallway. There were diagrams, explanations. I mostly remember the part about "risk." Risk of blood clotting. Risk of transfusions. Risk of possible side effects, including "death." I tried to move through these briskly, telling myself they were required but highly unlikely warnings, the omnipresent slight chance of rain on a sunny day.

Two hours later, you were in an operating room, under anesthesia. Instruments were prepped. Doctors and nurses surrounded you. Finally, a neurosurgeon named Hugh Garton, a thin, fit man who likes to climb mountains in his spare time, opened your precious little head and witnessed the invader firsthand.

He spent a long time attacking it and trying to remove it, hours, really, a little here, a little more there, but it was entangled with so many important parts of your brain that he could

not take out much; it was like that game Operation that the kids play at the mission, where if you touch the edge, you set off the buzzer.

Dr. Garton removed about ten percent of the mass and then, choosing caution, stopped there. They stitched you back up and wheeled you to the recovery area.

All this time, Miss Janine and I waited in the massive lobby, with a beeper that lit with periodic updates. Every new message sprung us forward.

Finally, in the late afternoon, it flashed SURGERY COMPLETE. An hour later, we got our first look at you. You were sleeping on your side, so small, you only took up half the gurney, with tubes and wires attached to your body, and a large white bandage with a tiny bow wrapped around your head.

My heart sank.

Of all the hospital moments we would go through together, Chika, that one was perhaps the hardest, because until that point, despite the MRIs, the consultations, even signing those consent papers, I still had not faced the full gravity of your situation. You were playful in your first days with us, chasing me around the house, and I let myself get lost in that.

Now here you were, so tiny on that gurney, knocked out by the anesthesia, surrounded by monitors. They had cut you open and worked for hours, yet nobody was saying “We got it all.” There was no relief, just more questions, and days to wait before the pathology came back. They said you would be in pain for some time, and even with the drugs, we should expect some challenges.

I stared straight ahead. I had let them do this. I had given my OK. The thought that my decisions had in any way hurt you turned my stomach into knots.

It also left me humbled, Chika. This might be hard to understand. But to that point, I still felt, foolishly, that I was in control of things—with you, with our kids—like I was Superman in that lobby. I had strength, I had resources. If I didn't know something, I could learn it and still lead. Our kids were small. I was the grown-up. I could take care of whatever came our way.

Standing over you that day, facing the first serious medical issue in the five years I'd been operating the orphanage, that sense of control was obliterated. A sense of foreboding took its place. You were smaller than me, yes. But what if this challenge was bigger than both of us ?

“Happy New Year! ”

We are on the cusp of 2014, and the kids jump around and

sing “Auld Lang Syne,” which I taught them, minus the words, because I don’t know the words. So we all just holler, “Da-daaa, da-da-da, da, da-daaaa”. . . .

It’s been our tradition since my first winter at the mission. Each December 31, we have a special dinner of pizzas from a Port-au- Prince hotel, and cups of apple juice, and a large sheet cake with chocolate icing. This is followed by the lighting of sparklers, one per child. We put them in the dirt along our wall and make a wish. When the last of the sparklers burns out, it is officially “our” New Year, even though it is barely eight-thirty.

“Happy New Year, Chika,” I say, kneeling beside Chika Jeune, who has been with us for about six months. “Can you say ‘Happy New Year”?’

She has a solid row of baby teeth, her two front ones touching. “’appy new year,” she says.

“You know what? Tomorrow is January, which means your

birthday is coming up. And you’ll get to wear the birthday crown.” Her eyes widen.

“When my birt’day?” she asks.

“Nine more days”.

“How old I be”?

“Four”.

She considers this, and I count on my fingers to show her.

When I reach four, I tap her soft cheeks and say, “Boink.” She rushes forward in a happy hug, although I don’t know if it’s for me or for the news that she will soon be older.

Us

“Mister Mitch?” Hmm?

“Then what happened”?

Hmm?

“At the hospital”?

I realize I have drifted off and am staring out the window at a

dawn redwood tree, whose yellow needles are thick in these summer months. It’s the only yellow tree in our backyard, and I was trying to remember if we planted it, or if it was here when we bought the house twenty-five years ago.

“Never miiiind,” Chika says, waving a hand.

No, it’s OK, I say. You asked. I should tell you. I just don’t like this part.

“How come”?

Because it was bad news. “Nuh-uh”.

It wasn’t bad news?

She shakes her head no.

***

How could she determine that? I never told her this story, the moment Janine and I entered a small consultation room a few days after Chika's surgery.

Anyone who has sat through that slice of time, when you don't know something awful and then you do, will confirm that it is literally a bend in your life, and what is critical is what you choose next; because you can view a diagnosis many ways—as a curse, a challenge, a resignation, a test from God.

Janine and I had been hopeful that morning, based on doctors' earlier analysis, that the mass in Chika's brain could be manageable. It was fuzzy on the scans. And the frozen samples they removed during surgery were not overly alarming .The hope was for a grade one tumor, most easily dealt with, but we were braced for a grade two, which they warned could involve some radiation and long-term surveillance.

Instead, Dr. Garton came into that consultation room, sat down, and, in a soft but direct voice, said the news was not good, worse than they'd thought, that Chika had something called diffuse intrinsic pontine glioma, or DIPG. When I asked if that was a grade one or two, he said it was "a four."

A four?

He began to lay out options, which included radiation therapy and experimental medications, but all I heard was "four." Four? I felt like I was stumbling, even as I was sitting down. Four? I kept listening for the part where the surgeons go back and take the whole monster out, but it never came. Apparently, if they did that, there would be nothing left of Chika's brain to function.

Four?

"I'm really sorry to be bringing you this news," Dr. Garton said. He shared some ominous truths about DIPG: There were only around three hundred cases in the United States every year; it usually struck children Chika's age, between five and nine; it quickly

debilitated them—their walking, their mobility, their swallowing. And the kicker: its long-term survival rate was, basically, zero.

We were stunned. As Dr. Garton ran through the options, I remember deliberately closing my mouth, because it was hanging open, and realizing there was even more to this moment than the feeling of a piano crashing on your head; we were supposed to make a decision. That's why he was telling us all this horrible information.

A decision? On Chika's life? She had just gotten to America, what, a few weeks ago? We were buying her shoes. Asking if she liked scrambled eggs. She was supposed to stay a couple of months, then return to the orphanage, cured by our amazing American medicine. A decision on her life?

Janine and I exchanged glances.

"What if she were your child?" I mumbled, falling back on that shell game of putting the onus on the doctor.

"Well," Dr. Garton said, exhaling, "I would probably take her back to Haiti, let her enjoy the summer, be with her friends, until . . ."

It's in the "until" that everything awful lies.

I could see Janine tearing up. I felt my insides welling. I blurted out the question before I lost the courage to ask it.

"How long does she have?"

"Maybe four months," he said, softly, then added, "maybe five," although I think he just said five to ease the blow of four. Four. Again, a four. He said radiation could extend that time frame, maybe double it, although her "quality of life" might be affected, and he personally wouldn't choose it, because she'd have to stay here instead of returning home, and, in the end, it would not make a difference.

Now, generally, I am inclined to heed doctors' advice. I respect their knowledge and expertise. But when he said "quality of life," something turned in me like a crank. Here we were, sitting in America, in an extraordinary hospital in a very affluent city. "Quality of life," as we knew it, had little connection to the land in which Chika was born, and whose toughness she carried in her veins. Remembering that she'd survived an earthquake in her first days on Earth, and slept in the sugarcane fields, and endured the death of a mother she barely knew, and had already bounced between four different homes, the idea of sending her back to wait for her demise seemed cruel. I found myself growing defensive, like a manager whose boxer was being underestimated.

"She's a fighter," I finally said, looking over at Janine, who nodded. "And if she fights, we're gonna fight."

Dr. Garton leaned back. "All right," he said.

And then, for a few moments, we all just sat there, staring at an invisible battle plan.

***

“Yay”!

Chika claps her hands.

What? I say.

I realize I have been talking out loud, telling her the tale I didn’t

want to tell her.

“Yay!” she says again.

Why are you clapping? Because I told you the story?

No answer.

Because we chose to fight?

No answer.

Why, Chika?

She stands and takes my hands. She mashes them together. “Clap for us, Mister Mitch”!

I flip my palms, confused.

And she is gone again.

Three

Me

Twenty years before Chika came to live with us, I embarked on the journey of my life. It wasn't a great distance, less than seven hundred miles on an airplane from Detroit to Boston, and a thirty- minute rental car ride to the suburb of West Newton. I had come to visit an old college professor.

His name was Morrie Schwartz.

Morrie was dying. He'd been hit with amyotrophic lateral sclerosis, ALS, the progressive neurodegenerative disorder also known as Lou Gehrig's disease, named for the famous 1930s baseball player who, forced to retire due to this illness, still announced in his farewell at Yankee Stadium, "Today . . . I consider myself . . . the luckiest man . . . on the face of the earth".

"Yeah. Well," Morrie would tell me, "I didn't say that".

At the time, I was thirty-seven and working five jobs, newspapers, TV, radio, books, freelance. I never said no to anything for fear I wouldn't be asked again. I only learned of Morrie's illness from television, an interview he did on ABC's Nightline program. Ted Koppel, the show's anchor, had flown up from Washington, D.C., to meet the elfish, dying professor, who was teaching visitors, often with a smile, what imminent death revealed about life. Koppel was so impressed with Morrie's attitude, despite no longer being able to walk, dress, or bathe on his own, that Nightline did an entire show on him, and would do two more.

I saw the first of these, and my jaw dropped. Morrie—a healthier version—had been my favorite college professor at Brandeis University. He taught sociology. I took every class he offered. He felt more like an uncle than a teacher. We'd walk around campus together, eat lunches together. Morrie was so ablaze with ideas, even with his mouth full, that

when he spoke, little pieces of egg salad would come flying my way. (I once wrote that I had two urges the whole time I knew him: to hug him, and to hand him a napkin.)

On graduation day, I gave Morrie a present, a briefcase with his initials on it. He teared up and hugged me and said, “Mitch, you’re one of the good ones. Promise me you’ll stay in touch”.

I promised that I would.

Then I broke that promise.

For sixteen years.

Sixteen years without a visit, a letter, even a phone call. I had

no excuse except the one we all use. I was “busy”—in every pathetic way we employ that word—an in-demand sports journalist, climbing ladders, stacking successes, ever so importantly engaged, I thought.

So when I saw Morrie on Nightline all those years later, my shock was followed by something gnawing. Guilt. Or maybe shame. The sense that I was no longer “one of the good ones”.

I called him up. I made plans to see him. It was supposed to be a single visit. But Morrie broke through something during that first encounter. Even though weak and confined to a wheelchair, he so deftly dissected me—saying, “Dying is only one thing to be sad about, Mitch. Living unhappily is something else”—that I found myself coming back, another Tuesday and another Tuesday and all the Tuesdays he had left in his life. We took one last “class” together about what truly matters in life once you know you are dying, and he pulled out of me a better, previous version of myself.

Our visits were eventually chronicled in a manuscript I wrote to pay his medical bills, Tuesdays with Morrie, which was supposed to be a small book yet somehow became a big book. And I became, as the years passed, an eternal graduate assistant for Morrie’s final course.

It changed me. It couldn’t help but change me. My conversations with strangers went from who was going to win the Super Bowl to “My mother just died and the last thing we did was read your book together. Can I talk to you about her?” Perhaps my old professor knew that my hard head would require daily knocks to

reach a softer, wiser center. Tuesdays with Morrie provided the pounding. It was a constant riptide back into Morrie's waters, quoting him, recalling him, answering questions about him, until the actions once steered by him felt natural to me.

I was asked to speak at hospice events, medical conventions, universities. I began to visit and even counsel newly diagnosed ALS patients.

With the terminally ill, I shared Morrie's observation that his last months proved his most vibrant; he likened them to the vivid colors of a dying leaf.

With the healthy, I repeated Morrie's mantra of pretending each day to have a bird on your shoulder, a bird that you ask, "Is today the day I die?"—and to live each day as if the answer were "Yes".

So you might think the journey of my life, twenty years earlier, was part of the Lord's brilliant plan for handling Chika's prognosis, arming me with a sturdy philosophy, and a heart steeled for the grimmest of news.

Except an old man looking back on his years is not a little girl looking forward to hers.

And, as it turns out, you can have more than one journey of your life.

Us

Chika? I say.

I don't see her. But I hear muffled laughter.

I get out of my chair. I walk around the room. It is early

September, more than a month since her last visit.

Where is Chika? I say.

This was a frequent game we played. Finding Chika. She

would hide when she heard the front door open, under a blanket or beneath the kitchen table, and you'd have to yell, "Where is Chika? We lost her! Where is she?" until your voice displayed enough panic that she would burst forth and shout in her budding English, "Here is me!" Then she'd crack up laughing and throw her shoulders forward in hysterics. I have never witnessed a child happier to be discovered.

Now, apparently, we are playing the game again.

Where is Chika? I intone. Where did she go?

I see a blanket spread over a futon, which I sleep on

sometimes when I write into the night. I grab the blanket. I make my voice playful.

Is she under . . . here? I say, yanking it up.

"Nooooo," she answers, from across the room.

I turn. She is standing by my desk, reading the yellow pad. So

I guess the game is over.

"What does it mean?" she asks. "'Time Changes"?'

It's the second thing you taught me, I say. The second lesson

on the list you wanted me to make. She pulls out my chair.

Write it".

Then she plops in the seat and laughs.

I have to sit there to write, you know.

"I know," she says and laughs again.

She spins the chair back and forth on its swivel. "Wrrrrr!

Wrrrrr!" Suddenly, the blanket from the futon is in her hands. She pulls it over her head.

"Where is Chika?" she yells. I sigh.

Lesson Two

Time Changes

Do you remember the first morning you woke up at our house? I was already down in my office, because mornings are when I write. Suddenly, my phone rang; it was Miss Janine, calling from the bedroom. In a raspy, just-woke-up voice, she said, “Mister Mitch, Chika is hungry for breakfast. Can you help her?”

I came upstairs and led you to the kitchen, and we found eggs and butter and some cheese and tomatoes. I showed you the frying pan, the burner, and you stood on your tiptoes and helped move the spatula around. I poured juice. We said our prayers.

And I watched you eat.

And I watched you eat some more.

To call it “leisurely” doesn’t come close. You chewed. You

looked out the window. You put down your fork, yawned, and picked up your fork again. You swayed back and forth to some internal rhythm. It took nearly an hour. I would compare this to the pace that I eat breakfast, except I don’t eat breakfast.

But the next morning, when I heard your feet thumping down the steps at 7:00 a.m., I rose from my desk, met you at the door, lifted you as you said, “Mister Mitch, I am hungry!” and carried you up to the kitchen.

A child is both an anchor and a set of wings. My old way of doing things was gone.

Time changes. With a little one, it is no longer your own. All parents will tell you this. But perhaps because it happened to Miss Janine and me so late in life—after twenty-seven years of it being just the two of us—the difference was jolting.

When we decided you were not going back to Haiti, Chika, not until we found a way to beat this awful thing, we brought you home from the hospital with two

stuffed animals, a bandage on your neck, and a suitcase full of hopeful naivete. We didn't realize the scope of this undertaking, that we were ushering in not only a child but a challenge—a full-time search for a cure to an aggressive disease that, two weeks earlier, we had barely heard of.

You had a pace. The disease had a pace. And from that point forward, all we knew about time would change, from the way we used to spend it, to the way we cherished it.

***

Do you know how old I am, Chika? You used to guess “Thirty!” and when I said no, you tried “A hundred!” Relative age must be so mysterious to children, who count their time in half years. (“I’m five and a half!”) But we were in our late fifties when you came to live with us, young enough to maintain our routines, old enough to bristle at changing them.

Not surprisingly, Miss Janine was faster at adapting than me. I think she was always, in some manner, preparing for this day.

On the other hand, when I was younger, I was afraid of becoming a father. I saw how it ate up the hours. I worried that I wouldn’t give it the proper time and would wind up being a bad dad. Also, to be totally honest, I thought it would hinder my career. I was advancing fast and wanted to keep up that pace. Ambition is not something I ever warned you about, Chika, but I have learned it can overtake you gradually, like clouds moving across the sun, until, consumed by pursuing it, you get used to a dimmer existence.

When Miss Janine and I married, she knew all this. But she believed in a better version of me, a more generous one, and in our early years together, I wanted to live up to that. Still, hoarding time becomes a habit. I remember once, when we were trying to have children, I raised the idea of hiring an au pair to help take care of them. Miss Janine rejected it. She got angry, actually ,which she rarely did. I wondered why she wouldn’t welcome the help, blind to the hurt that her husband was already planning time away from a baby we didn’t have.

And then you, with your unhurried ways. You were five years old, but such a curious five-year-old, as if the pages of your life had been stacked but not yet turned. If you saw squirrels darting up a tree, you shouted “Squirrels!” then asked where they were going, then asked if they could see you. You had questions about books. Questions about food.

Questions about clouds and angels. You examined your entire inventory of clothes before getting dressed. “Those red socks are good,” I’d suggest, growing impatient.

“I think I want the green ones”.

“The green ones are good”.

“No, wait, wait. The blue”.

With little choice, we slowed to your rhythm. We kneeled to

your sight line. I often found you sitting on the floor by our back window, just studying the yard. I remember Morrie, my old professor, pointing to a window once and saying he appreciated it more than I did, because, due to his sickness, that window was his view of the world, while to me it was a pane of glass.

You appreciated a window more than I did, too, Chika, and all the amazing things on the other side of it. I had to decelerate to match your awe, to hit the brakes in my life, to beg out of dinners because of your bedtime, to be late for work because of places I needed to take you, to constantly apologize to bosses and editors for my suddenly slower production.

But I did. Miss Janine did, too. And we found ourselves studying you in a growing fascination. We’d nudge each other as you clapped for a movie, or danced around the table without knowing we were watching. If you nodded off in my arms, I’d hold you for a long time while Miss Janine stroked your hair. I don’t know how many hours we spent just looking at you, Chika, but there were many, and they were treasured.

Before you came to us, we would watch TV in bed, and often fall asleep with the TV still playing. Once you arrived, we shut the lights and tiptoed around you in the darkness. Often, in the dead of night, you would wake us up.

“Mister Miiiitch”?

“ . . .Hmm”?

“I have to go potty”.

I would guide you to the bathroom, then wait, yawning, outside

the doorframe. I’d hear you flush, help you wash your hands, then guide you to your bed, which was nice and low so you could tumble into it.

“Is she OK?” Miss Janine would whisper as I crawled back in beside her.

“She’s fine,” I’d mumble, closing my eyes. “She’s good”.

The most precious thing you can give someone is your time, Chika, because you can never get it back. When you don’t think about getting it back, you’ve given it in love.

I learned that from you .

***

By the way. About your bed. It may sound funny, but when you first arrived, we didn't know where to put you. It wasn't like we'd had months to plan. Our house, which we had lived in for nearly twenty-five years, was as set in its form as we were. The guest bedrooms were downstairs. We couldn't have you that far from us. But you were too big to put in a crib.

In the end, we got a full-sized air mattress, draped it in Frozen sheets and colorful blankets, and set it at the foot of our bed. The first night you spent with us, I forgot it was there. I got up to use the bathroom, tripped, and went stumbling to the floor.

Eventually I got used to it. I'd remind myself in the darkness to take four extra steps before turning left, and reverse my field on the journey back. I also made a habit of leaning over you in each direction, checking on your small form, splayed between pillows, your soft breathing so different from mine.

Do you remember the day I came home to find you and Miss Janine laughing mischievously? And Miss Janine said, "Chika, how does Mister Mitch sound when he sleeps?" And you made a loud snoring noise that suggested a lion coughing up a hairball? And I grinned stupidly and said, "Great, now there's a second set of ears on me."

Well, of course, that was true. A second set of ears, a second set of eyes and arms and legs, a second bed that we had to walk around. This is what changes hand in hand with time:

Space.

Before you, Chika, we were a pair. Now, we were a trio. Our car went from a married couple in the front seat to you and Miss Janine in the back, and me behind the wheel like a chauffeur. Tables for two became a four-top and a decision: Which of us sat next to you and helped cut your food? We expanded in every way —and it quickly became the norm.

Suddenly, three. Three seats for a movie. Three seats in a shoe store, or a waiting room, or a dentist's office.

And three seats at the Beaumont Hospital radiation clinic in Royal Oak, Michigan, on a Monday morning, where a nurse came out and asked if you were ready to get a "special helmet," and you shrugged and said "OK." We stood and walked together, all of us holding hands, one, two, three, down a long hallway and into the fray.

It is July of 2015 and sweltering hot, my first trip back to the mission since Chika left. She is the only one of our children to ever go to America, and I am not inside the gates thirty seconds before the other kids surround me and the questions start.

“Does Chika live with you”?

“Does Chika sleep in your house”?

“Does Chika have her own room”?

“Does Chika have a dog”?

They ask when Chika is coming back. They tell me they are

saving her bed and no one else is sleeping in it.

The next day, I hang a drawing Chika made in the school

office. It says, “Hi, everybody. I am playing and having fun. Love, Chika. P.S. I miss you”.

The kids stare at it. She is different to them now, outside the gates, under my care. One of our girls asks if she can go to America, too, and I say no, not right now.

“But why?” she says. “I don’t have a mother, either”.

Us

Mister Mitch?" Hmm?

"Why did you keep this"?

Chika reaches between a stapler, coffee cups, rubber bands, and a tissue box (my desk looks like the sale bin at Office Depot) and holds up a picture frame: inside is a school questionnaire from Haiti that she filled out just two weeks before coming to the United States.

By "Name" she wrote "5." By "Age" she wrote "Chika." At the bottom, she was asked to finish this sentence: "When I grow up I want to be".___

She wrote a single word.

BIG.

"Why did you keep it?" Chika repeats.

How do I answer? Because it once made us laugh? Because later it made us cry? Because I stare at it now and argue with God over why such a simple request could not have been granted?

When I grow up I want to be . . . BIG.

I don't know, Chika. Some things you just keep. "I got big," she says.

When?

She drops her eyes.

"Don't you re-MEM-ber?" She fills her cheeks with air, like she's blowing up a balloon.

I push back in my chair.

I remember, I say.

***

Dexamethasone is a corticosteroid meant to reduce inflammation. Chika started taking it in advance of the radiation treatment, little pills she would swallow with applesauce. As a sports journalist, I had covered athletes who used steroids to bulk up, and when I first heard the doctors talk about this drug as "Dec," for its brand name, Decadron ("How much Dec is she on?" "We could increase her Dec"), it sounded almost sports-like. Ballplayers using steroids would call it "getting big." And indeed, in a short time, Chika got big, but not the way they did.

The steroids shrunk the tissue near the tumor but inflated her everywhere else. Her appetite grew ravenous. Her breakfast went from one banana to three eggs, cereal, grapes, and two pieces of toast with almond butter. At dinner, she could eat as much as I could. We were careful not to indulge these heightened cravings with junk food, but Chika's hunger was not discerning. She'd eat two helpings of salmon. Brussels sprouts. Caesar salad. If she saw me eating anything, her voice would skip up high. "Mister Mitch, what's thaaaaat?" I'd say, "It's a turkey sandwich." And she'd look away and mumble, "I wish I had a turkey sandwich".

In less than two months on steroids, Chika looked like someone else. She had a double chin, and her cheeks were so full, you'd have thought she was storing walnuts. I learned there is a medical term for this, moon facies, or moon face, something a mean kid might holler, and I worried about what other kids would say to Chika. Her arms and legs had dimpled, and her tummy protruded noticeably. She went from forty-eight pounds to seventy-three.

None of this diminished her joy. Her smile was just as bright, but instead of spreading across her face, it was puckered between her cheeks. Her mouth and eye still drooped down on the left, and she still walked with a hitch in her left leg, but the doctors said this might change if the radiation was effective.

I learned that despite the great complexity of the human brain, all an invader like DIPG had to do was to press against a certain spot on a certain lobe and boom—your eye drooped, your legs buckled, your speech drawled. Diminish the pressure, and the symptoms disappeared. It was almost too mechanistic, as if you could yell "Back off!" to the tumor and everything would return to the way it was.

The radiation was to serve that purpose, a beamline of subatomic particles, narrowly aimed and as destructive as a bomb. Every morning, five days a week, Chika would slide into a massive machine, her head locked down by a helmet, her eyes with little choice but to look up into the cylinder. The nurses who prepped her were endlessly upbeat—"You're amazing, Chika! You're a rock star!" Still, I wonder what the rock star thought when those nurses had to leave the room before the machine turned on.

All told, she did six weeks of this. We introduced routines to make it more fun—she signed herself in when she arrived, she picked out music to listen to during the session. But Chika's body paid a price. The hair behind her right ear disappeared, because radiation will destroy healthy cells along with cancerous ones, particularly fast-growing ones like hair cells. At night, sometimes, she would sweat and flop around the bed, yelling, in Creole, "Doktè! Doktè!"

Still, over time, there was significant shrinkage of the tumor, beyond what they had hoped. Her radiation oncologist, Dr. Peter Chen, showed us images on large computer screens and MRI scans. You see this? That's when she first got here. Now look. By early autumn, when I took her to a cider mill to feed the ducks and taste some apple pie, Chika's tumor had retracted by twenty-five percent.

Twenty-five percent?

"Maybe even thirty," Dr. Chen said.

We were filled with a sense of strength. With her initial at bat, Chika had smacked a solid triple. "She is going to beat this," Janine told me. "Why can't she be the first?"

As time passes, Chika acquires clothes, some that we buy her, some that our friends bring her. She likes to dress up, the frillier the better. She marches around in Janine's high heels. She drapes herself in multiple necklaces. She wears two hats at the same time.

"She likes to gild the lily," Janine jokes.

One day Chika and I are heading out.

"Hold on," I say. "You have something on your face".

"What?" she says.

I grab a napkin. I pat the area around her lips.

"You're kind of wet here. How did you get all wet"?

"Mister Mitch!" She throws up her hands. "That's my lip gloss"!

Us

Summer is over before Chika appears again. I switch from shorts to long pants, and turn off the ceiling fans in the office. Chika always liked this office. When she came through the door she would lift her eyes to the tall bookshelves. She knew this was where I wrote, and that I needed quiet when I did. Perhaps getting to enter made her feel special.

This time, when she arrives, she taps me from behind and I nearly jump out of the chair. She laughs hysterically.

“What are you doing?” she asks. Writing.

“About me”?

Like you wanted me to. “Hmmph”.

She spins to the piano behind us.

“Let’s play something”.

I have always had a piano in my office, owing to my earlier

days as a musician. Even now, when I get lost in the woods of writing, I turn to playing to guide me out. Chika starts whacking the keys, making the same cacophony she made when she was alive.

“Don’t bang,” I used to scold. Then one day, I brought her to visit a friend, a jazz musician, who listened calmly as she pounded, then stood over her and created a bass line with his left hand and some chords with his right, a tuneful bed to envelop her wanderings. That was the last time I told Chika what to play.

Everything in this world is music if you can hear it. Make a joyful noise, the psalm says.

We sit and tap out “Jingle Bells.” Christmas songs were always welcome, even in summer. I sing, Dashing through the snow, in a one-horse open sleigh, over fields we go—

“Through the fields,” she corrects. Through the fields?

“Yeah”.

Not “over” fields?

“No. See.” She sings, “Dashing through the snow, in a one- horse open sleigh, through the fields we go”. . .

I start to sing with her, but she puts her hand over my mouth, then finishes with, “laughing all the way, ha-ha-HA”!

You have to do that? I ask, smiling.

She grins. Most times we sang, Chika cupped her palm over my mouth, a clear sign that her act was solo. It made me laugh then. It makes me laugh now.

“Mister Mitch? Why did you write those words”?

Which words?

She slides off the bench and moves to the desk. She points at

the yellow pad, and number three on the list. “Them,” she says.

Lesson Three

A Sense of Wonder

We took you to Disneyland once, Chika. Do you remember? It was after the radiation treatments. You had been wondering about Sleeping Beauty's Castle, which they show at the start of every Disney movie. "Is that real?" you'd ask, and we'd say that it was, and someday we would take you to see it. One night, after putting you to bed, Miss Janine and I looked at the missing patch of hair above the back of your neck. Your forehead was perspiring. And we said to each other, "What are we waiting for"?

We made the reservations. We flew to California. I bought tickets for a weekday, hoping for smaller crowds, and we arrived before the park even opened.

What I remember most is what you did first. We entered through Main Street, passing souvenir shops. The rides were up ahead, and I wondered which would make you scream, "Can we do that one"?

Instead we passed a small pond, and a gray duck wandered out of the water. And with Astro Orbitor to your right, Thunder Mountain to your left, and Sleeping Beauty's Castle straight ahead, you pointed down and yelled, "Look! A duck!" And you chased after it and giggled wildly, "Duck! Duck"!

I glanced at Miss Janine, who was smiling, too. With all those amusement park attractions calling, you got low to marvel at another living creature .

***

If the first words from a child's mouth are "Mommy" or "Daddy," the next word must be "Look!" That's how it felt to me, anyhow. As an uncle, I watched countless times as nieces and nephews held up scribblings—"Mommy, look!"—or prepared to pool dive —"Daddy, look!"—or grabbed a toy off a store shelf—"Uncle Mitch, look!" As dutiful family, we would nod and say, "Very nice" or "Wow."

But I confess a sense of disconnect. It was never as fascinating to me as it was to them.

Then you came along, Chika. And maybe because I'm older now, or maybe because your eyes were so much wider than mine, or maybe because it's simply different when the child is in your care, something stirred. I began to lean over, to see tiny miracles the way you saw them. Baby ducks running. Frogs hiding in the weeds. The wind lifting a leaf you were about to grab. One of the best things a child can do for an adult is to draw them down, closer to the ground, for clearer reception to the voices of the earth.

You did that for me, Chika. We buried in leaves. We studied ants in the driveway. We rolled in snow—which astonished you the first time you saw it—and made your very first snowman. You put me on the other end of a magnifying glass or a toy telescope, and through those lenses, I could marvel at the world the way you did. You were an unfailing antidote to adult preoccupation.

All you had to say was, "Look!"

Look. It's one of the shortest sentences in the English language. But we don't really look, Chika. Not as adults. We look over. We glance. We move on.

You looked. Your eyes flickered with curiosity. You caught fireflies and asked if they had batteries. You unearthed a penny and asked if it was "treasure." And without prompting, you knew discovery should be shared.

"You smell it," you would say, holding out a fragrant flower. "You eat it," you would say, holding out a chocolate candy.

So I did. I followed your lead. I ran after you sledding. I rode

behind your carousel horse. I splashed after you in the swimming pool, remember? You invented a game where one pool edge was America and one was Haiti and you paddled between them, bringing rice and beans back and forth, saying, "Here you go! Eat them! Yum!" I don't know where you came up with that, Chika, or why it made you cackle with laughter. But I swam beside you from country to country, and your imagination was a thing to behold.

Children wonder at the world. Parents wonder at their children's wonder. In so doing, we are all together young.

So you taught me that, Chika. Or rekindled it, if that sense of wonder remains a pilot light inside us all. There was such a timeless quality to your enterprises—crawling under tables on a secret mission, setting up tiny cups for an imaginary tea party— that it almost erased the urgency that hung over you.

But my receptors, being the grown-up kind, could not ignore that urgency.

The relative success of the radiation treatments had boosted our hopes, and even boosted your lips and left eye, closer to a normal symmetry. Your walking improved. You ran and danced. The summer passed and you were better than before. So, progress, right?

Still, I had been warned by doctors that this could be a "honeymoon" period, that the invader in your brain stem was "dormant" but not gone, a volcano regathering.

Be vigilant, I told myself. Be wary.

This was brought home to me during, of all things, a college football game in mid-September, at the massive University of Michigan stadium, which is affectionately called The Big House.

There were more than a hundred thousand people there that Saturday, and from my perch in the press box, where I had come to write my sports column, I glanced down just before the game began to see a family walking onto the field. The public-address announcer bellowed, “Joining the captains for the coin toss is Chad Carr. Our thoughts and prayers are with the Carr family”.

I swallowed hard. The Carr family meant Lloyd Carr, the former Michigan football coach, whom I knew well, his son Jason, Jason’s wife, Tammi, and their three children, including their youngest, Chad, who was four years old, and whom the announcer had individually recognized.

Because Chad Carr—like you, Chika—was suffering from DIPG.

I watched him carried out, listless in his father’s arms, a beautiful child with a mop of blond hair. His battle had become a well-known story in Michigan, the subject of TV news reports and articles. I had spoken with Tammi several times. She told me all she knew about the disease, and introduced me to a community of families, all climbers on a worldwide DIPG mountain, sharing what ledge to grab, what slips to avoid, and sometimes, painfully, the news of those who had fallen.

COMMENTARY

Translating requires a deep understanding of both the source and target languages' grammatical, lexical, and cultural aspects. Just as in any field, Translators experienced different types of errors and problems during their work; therefore, they have to adopt different theories to tackle these problems. During translating the graduation project, I encountered different issues and adopted different solutions to solve them.

First, lexical problems:

I have opted for transliteration in translating names of cities, countries, hospitals, shows, and cartoons because it is the process used in rendering those elements. Sometimes, I have provided the English name next to the Arabic one if the Arabic transliteration alone will cause ambiguity. For instance;

مستشفى موت للأطفالMott Children's Hospital (Line 487)

عيادة بومونت للإشعاع Beaumont Hospital radiation clinic (line 938)

برنامج نايت لاين Nightline (line 790)

There was another problem at the lexical level; Creolic words, phrases, and songs' titles which I opted for literal translation in transferring them. Such as*; "Jeriko Miray-La Kraze" and "Mwen se Solda Jezi", "tranbleman tè "* and many others. The author sometimes provided an English equivalent, and sometimes not. When there was an English equivalent, I kept the Cerolic words and phrases in the target text as they were in the source text and translated the English equivalent. And when there was not an English equivalent, I added a footnote with their meanings.

I encountered a problem at the level of meaning, particularly word choice. The writer used the term "nerve doctor" to simplify the term "neurologist", and to maintain this simplification; I used إختصاصي and طبيب. (lines 432 and 434).

Second, Grammatical Problems.

Grammatical rules vary from one language to another, and this may pose some challenges for translators.

One grammatical error that posed some difficulty was the use of the word "teached" by the child. The verb was supposed to be "teach," but the child, I presume, was not aware of using the infinitive form after "did." And whereas there was no possible way in Arabic to transfer and maintain this error, I added an ا in the middle of the Arabic word علمتك.

There was also the use of passive voice. Passive voice is not preferable in Arabic if the subject of the sentence is known. I encountered sentences where I shifted the passive into active. One example is "Chika loved to be read to" I transferred it into an active sentence which reads "كم أحببتْ تشيكا أن نقرأ لها." As in line 71.

Third, phonological problems:

During translating, I faced phonological problems; most of them are child's speech errors, and for transferring them, I opted for literal translation. I transferred those errors to similar errors in Arabic. For example; The isby-bisby spider, went up a water spout. . . " I transferred it into "العنكبوت الثغير ذداً تسلق صنبور المياه " (line 47)

and "appy new year," "ثنة جديدة ثعيدة" (line 649)

Finally, stylistic problems:

Those problems require the translator to render the sense and reshape the author's words in another language. Mostly I opted for communicative translation for such issues. One example is, "Gradually, I had to face the fact that I could not control everything, no matter how fast my eyes darted from spot to spot." I translated it as وشيئاً فشيئاً أدركتُ أنه لايغني حذر من قدر. (line 421)

Another is; "Ambition is not something I ever warned you about, Chika, but I have learned it can overtake you gradually, like clouds moving across the sun, until, consumed by pursuing it, you get used to a dimmer existence." Which I

لم أحذركِ من الطموح يوماً يا تشيكا. لكني تعلمتُ من تجربتي أن الطموح سراب لا transferred into نستطيع بلوغه وسينتهي بنا العمر قبل أن نروي عطشنا. (lines 880-881)

Conclusion

Translation is the process of transferring the meaning, grammatical structures, and style of a text from one language to another. Translation's importance comes from the fact that it bridges the cultural, linguistic, and religious gaps between nations. Due to its importance, translation is being taught in many universities around the world.

To acquire a Master's Degree from King Khalid University, Students have to translate 12,500 words. I have translated an expressive book, biography/autobiography written by Mitch Albom to fulfill graduation requirements.

References:

Munday, J. (2016). Introducing translation studies: Theories and applications. Routledge.

Newmark, P. (1988). A textbook of translation. Vol. 66. New York: Prentice hall.

Reiss, K. (1977/89) 'Text types, translation types and translation assessment', translated by A. Chesterman, in A. Chesterman (ed.) (1989), pp. 105–15.